رحالة فى رمضان

ابن جبير
ابن بطوطة
العياشى
جيرار دى نرفال
البغدادى
العبدرى
ادوارد لين
محمد السنوسى

ابن جبير فى مكة
رمضان ٥٧٨ هـ

ابن جبير ، رحالة عربى من الأندلس ، اسمه كاملاً هو أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى» ، وقد ولد فى بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥م) وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره ثم أصبح كاتماً لأسرار أمير غرناطة أبى سعيد بن عبد المؤمن الموحدى فاستوطن غرناطة .

ويقال أن الأمير الموحدى استدعاه يوماً ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه فمد يده إليه بقدح من نبيذ ، فاعتذر ابن جبير وأبى واسترجع فأقسم عليه الأمير إيماناً مغلظة ليشربن منها سبعاً فشر بها صاغراً مكرها ثم ردها عليه أبو سعيد سبعة أقداح من الدنانير .

لذلك أزمع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيراً عن خطيئته ، وأقام سفره سنتين يدون ملاحظاته ومشاهداته فى كتابه «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وهو المعروف باسم «رحلة ابن جبير» .

وقد عايش ابن جبير فى رحلته تلك شهر رمضان مرتين أولاهما كانت فى عام ٥٧٨ هـ وهو بمكة المشرفة والثانية فى العام التالى عند مروره بصقلية أثناء رحلة العودة إلى الأندلس .

وكان أول ما لاحظه بمكة أن أميرها «مكثر» كان من بيت علوى موال للفاطميين رغم مرور أحد عشر عاماً على سقوط دولتهم على يدى صلاح الدين الأيوبى ، حتى أنه أمر بصيام يوم الشك (٣٠ شعبان) وذلك «لموافقته مذهبه ومذهب شيعة العلويين ومن إليهم لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً»

وقد احتفظ لنا ابن جبير بوصف دقيق وشامل لما كان يجرى بالحرم المكى من مظاهر الاحتفال بشهر رمضان . فسجل أول ما سجل ذلك الاهتمام الكبير بزيادة أحجام وأعداد وسائل الإضاءة منذ صلاة المغرب وحتى الفجر ، وهو ما تتفق عليه كافة الأقطار الإسلامية منذ العصور الوسطى إلى يومنا هذا ، فضلاً عن تجديد فرش الحرم من الحصير عند دخول أول أيام الشهر الكريم .

ومن غرائب ما دونه ابن جبير أن صلاة التراويح كانت تقام بالحرم فى نواح متفرقة بحيث تخصص كل ناحية لفرقة بإمامها ، وعدد أئمة التراويح وهم الإمام الخاص بالشافعية وإمام الحنابلة وثالث للحنفية ورابع للزيدية أما الخامس فهو إمام المالكية .

ولما كان ابن جبير ، شأنه فى ذلك شأن المغاربة وأهل الأندلس ، من المالكية فقد اهتم بأمر مشايعيه فى المذهب ، حيث ذكر أنهم اجتمعوا فى هذا العام على ثلاثة قراء يتناوبون تلاوة القرآن وأنهم أحفل جمعاً وأكثر شمعاً لأن قوماً من التجار المالكيين تنافسوا فى ذلك ، فجاءت جبهة المالكية تروق حسناً وتأخذ بالأبصار نوراً»

ويبدو من سياق حديثه بعد ذلك أنه كان هناك أئمة آخرون غير الخمسة الكبار الذى عينهم حتى كاد لا يبقى فى المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلى بجماعة خلفه .

وكان المصلون وراء إمام الشافعية فيما يبدو من حديث ابن جبير هم الأكثر عدداً ، وقد لاحظ أيضاً أنه يزيد فى ركعات التراويح حتى تبلغ العشرين خارجاً عن الشفع والوتر مع تعدد مرات الطواف فيما بينها .

وقد حرص الرحالة الأندلسى على أن يشير إلى أحد الأئمة المالكية فى الحرم وهو الفقيه الزاهد الورع « أبو جعفر بن على الفكى القرطبى وقراءته ترق الجمادات خشوعاً » .

أما التسحير خلال رمضان فكان يتم من المئذنة التى فى الركن الشرقى للمسجد الحرام وذلك بسبب قربها من دار شريف مكة فيقوم "المؤذن الزمزمى" بأعلاها وقت السحور داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور «ومعه أخَـوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه» .

ونظراً لترامى الدور بعيداً عن الحرم المكى حيث يصعب وصول صوت المؤذن كانت تنصب فى أعلى المئذنة «خشبة طويلة فى رأسها عمود كالذراع وفى طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يوقدان مدة التسحير فإذا قرب تبين خطى الفجر ووقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة وبدأ بالآذان وثوب المؤذنون من كل ناحية بالآذان» .

وعندما يرى أهل مكة من سطوح ديارهم المرتفعة أن القنديلين قد أطفئا علموا أن الوقت قد انقطع » .

وقد اهتم ابن جبير بأن يسجل مطولاً دخول الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخى صلاح الدين إلى الحرم وخضوع الأمير مكثر له وتقبله الخلع التى خلعها عليه ، وبعد ما كتبه بشأن هذه الحادثة التاريخية من النصوص التوثيقية نادرة التكرار .

ومن المظاهر التى حرص على تدوينها ختم القرآن الكريم فى كل وتر من الليالى العشر الأواخر فى رمضان حيث يتنافس أبناء أهل مكة من الصبية فى ختمه والاحتفال بذلك بإيقاد الشموع والثريات وتقديم الطعام . وقد نوه ابن جبير بابن الإمام الحنفى للحرم الذى ختم القرآن فى ليلة خمس وعشرين وأعقب ذلك بخطبة بليغة مست شغاف القلوب على صغر سن الخطيب .

وأشار أيضاً إلى غلام مكى من ذوى اليسار دون سن الخامسة عشر احتفل به أبوه احتفالاً بديعاً عند ختمه للقرآن فى ليلة ثلاث وعشرين وذلك أنه أعد له ثرياً مصنوعة من الشمع ذات غصون علقت فيها أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد لها شمعاً كثيراً «وضع وسط الحرم شبيه المحراب المربع أقيم على قوائم أربعة تدلت منه قناديل مسرجة وأحاط دائر المحراب المربع بمسامير مدببة الأطراف غرز فيها الشمع ، وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه ... ووضع بمقربة من المحراب مشير مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان ، وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم وقد ملئ المسجد بالرجال والنساء وهو فى محرابه وحوله الشموع .. » .

ويبلغ تأثر ابن جبير مداه بما يقع من مظاهر الاحتفاء برمضان فى ليلة السابع والعشرين فيؤكد أنه لا يوجد شئ يعدل ختم القرآن فى تلك الليلة «خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم وأنها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم» .

ففى تلك الليلة كانت تنصب أعواد من الخشب تحمل الشموع والمصابيح إزاء خطبم إمام الشافعية فضلاً عن تعليق ثريات النحاس فى أنحاء الحرم ، ويتغالى القوم فى زيادة الإضاءة حتى أن صبيان مكة أحدقوا بشرفات الحرم وقد وضعت بيد كل واحد منهم كرة من الخرق مشبعة سليطاً فوضعوها متقدة فى رؤوس الشرفات «وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع فجعلت كل طائفة تبارى صاحبتها فى سرعة إيقادها فيخيل للناظر أن النار تشب من شرفة إلى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء» ذلك مع ارتفاع الأصوات بالتكبير قبل أن يبدأ القاضى صلاة العشاء الآخرة مبتدئاً بسورة القدر التى انتهى أئمة الحرم فى الليلة قبلها فى القراءة إليها ، وبعد خطبة مؤثرة يعود الأئمة لإقامة تراويحهم كل مع جماعته .

وفى ليلة التاسع والعشرين اختتم سائر الأئمة التراويح وأضيئت الأنوار بالثريات وشمعدان الشمع بنفس الكيفية السابقة احتفالاً بختام الشهر المبارك .

ورغم أن الرحالة الأندلسى كان مالكياً إلا أنه انتقد خطبة إمام المالكية فى ليلة تسع وعشرين لأنهما «منتزعة من خطبة الصبى ابن الإمام الحنفى فأرسلها معادة إلى الأسماع ثقيلاً لحنها على الطباع» .

وما أن ثبتت رؤية هلال شوال حتى أوقدت أعالى المآذن من الأربع جهات فى الحرم وأوقد سطح المسجد الذى فى أعلى جبل أبى قبيس «وأقام المؤذن ليلته تلك فى أعلى سطح قبة زمزم مهللاً ومكبراً ومسبحاً وحامداً» .

ويذكر ابن جبير أن صلاة العيد أقيمت بالمسجد الحرام ، وأن الناس بكروا بالحضور وقد لبسوا أثواب عيدهم ، وبعد فراغ الخطبة أقبل بعضهم على بعض «بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء مسرورين جذلين فرحين بما آتاهم من فضله وبادروا إلى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين مزدحمين عليه فوجاً فوجاً فكان مشهداً عظيماً وجمعاً بفضل الله تعالى مرحوماً» .

وكانت آخر مظاهر الاحتفال بمقدم أول أيام عيد الفطر ، بعد انتشار الناس من المصلى وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض «زيارة الجبانة بالمعلى تبركاً باحتساب الخطا للصالحين من الصدر الأول وسواه» .

ثم قبض لابن جبير أن تقذف به تقلبات الجو أثناء رحلته فى العودة إلى الأندلس إلى شاطئ صقلية فى رمضان من العام التالى ليعاين الفارق الهائل بين ما رآه فى مكة وبين ما خبره فى هذه البلاد بعدما تغلب عليها النورمانديون وأزاحوا المسلمين عن حكمها .

❮ ❮ ❮

ابن جبير فى صقلية

لم يصادف ابن جبير فى حياته أياماً كتلك التى مرت به طوال شهر رمضان الكريم من عام ٥٧٩هـ إذ قضى هذا الشهر وهو فى طريق عودته للأندلس بجزيرة صقلية ، وقد حط ابن جبير عصا ترحاله على شواطئ هذه الجزيرة بعد أن عاين الموت بسبب أهوال البحر التى مزقت المركب الذى كان يستقله.

ويروى لنا الرحالة الأندلسى أنه أستطلع على ظهر البحر أهلة أشهر رجب وشعبان ورمضان وأمضى الأيام الثلاثة الأولى من رمضان فوق ظهر المركب وهو متجه لمدينة «مسينة» الصقلية .

وتعد مشاهدات ابن جبير فى صقلية ، من أهم النصوص التاريخية التى تحدثنا عن أحوال المسلمين بالجزيرة قبل أن يمر قرن كامل على قيام النورمانديين ، بالاستيلاء على صقلية من أيدى الحكام المسلمين المتنازعين ، وكانت هذه النازلة فى عام ٤٨٤ هـ .

والحقيقة الماثلة فى رواية ابن جبير أن المسلمين كانوا حتى وقت زيارته يشكلون نسبة لا بأس بها من السكان ولا سيما فى بعض قرى الريف والمدن التجارية الكبيرة مثل ثرمة وبالبرمو فضلاً عن اشتغالهم بالأعمال الادارية لدى النورمانديين وكذا التجارة والحرف الصناعية المختلفة .

والأهم من ذلك أن مظاهر الحكم الإسلامى بحضارته المميزة واللسان العربى المبين كانت مازالت ماثلة للعيان حتى فى قصر الملك النورماندى بمدينة باليرمو .

فعندما نزل ابن جبير صحبة المسلمين إلى شاطئ مسينة وجد الملك غليام هناك فقابلهم بما ألفه من حكام الجزيرة المسلمين قبله ، إذ أمر باعفائهم من الجمارك ورسوم كراء الزوارق التى حملتهم للشاطئ وسدد عنهم هذه الأعباء بعدما رأى عجزهم عن أداء ذلك . ويبدو أن عادة القوم فى هذا الميناء كانت قد درجت على الاستيلاء على أموال المسلمين الذين تصادف سفنهم سوء الطالع فتجنح بهم إلى شاطئها ، ولكن وجود الملك الصقلى أنقذ ابن جبير ورفاقه من النهب والسبى .

وقد لاحظ ابن جبير أن «مسينة» التى تستقبل تجارات أوروبا رغم رخص أسعارها ورواج تجارتها وأمن طرقاتها كانت تشعره بأنه «غريب الوجه واليد واللسان» ذلك لأنها «معمورة بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون فى أكنافها» . أما المسلمون الذين أمنوا على أملاكهم وضياعهم فقد فرضت عليهم أتاوة يؤدونها فى فصلين من العام ، وهم «نفر يسير من ذوى المهن» .

ومن المسلمين الذين صادفهم ابن جبير بهذه المدينة «يحيى بن فتيان الطراز» وهو يطرز بالذهب

فى طراز الملك (أى مصنع نسيج لأقمشة الملك) وآخر من وجهاء وكبراء المدينة يدعى «عبد المسيح» وهو من الذين يكتمون إيمانهم .

وقد أصر هذا الوجيه على استضافته ورفاقه فى رمضان ليبوح لهم بسره المكنون «بعد مراقبة منه فى مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه» . وأفاض «عبد المسيح» فى الحديث عن مراعاة المسلمين عند مرورهم بالميناء «واستهداء أدعيتهم والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لنتخذها عدة للايمان وذخيرة للأكفان» وفى نهاية هذه الاستضافة أجزل الفتى العطاء لابن جبير ورفاقه بعدما تفطرت قلوبهم له إشفاقاً وهم يهدونه بعض ما حملوه من مكة والمدينة .

وبعد مغادرة مسينة عرج الرحالة الأندلسى على مدينة شغلودى التى وصفها بأنها مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق منتظمة أشجار الأعناب وغيرها مرتبة الأسواق وتسكنها طائفة من المسلمين .

ومن الملاحظات ذات المغزى التى أوردها ابن جبير أن المدن الكبيرة كانت على الدوام أكثر تسامحاً مع المسلمين بعكس الحصون البحرية والقرى الريفية الصغيرة . وهو ما يذكره عن مدينة «ثرمة» التى للمسلمين فيها «ربض كبير لهم فيه المساجد» حيث قابلته طوائف النصارى هو ورفاق رحلته بالسلام والمؤانسة . «فرأينا من سياستهم ولين مقاصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة فى نفوس أهل الجهل» .

وقد أهتم ابن جبير بالتجول فى المدينة وقد كانت من حواضر المسلمين الهامة فى صقلية حيث شاهد «قصر سعيد» على بعد فرسخ منها وهو مسكن للعباد من المسلمين «وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع» وفى أعلاه مسجد «من أحسن مساجد الدنيا بها» .. مفروش بحصر نظيفة لم ير أحسن منها صنعة وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلاً من أنواع الصفر (النحاس) والزجاج وعندما بات ليلته بالمسجد سمع لأول مرة منذ رحلته البحرية أذان الصلاة ولقى خلال إقامته كرماً زائداً من الساكنين بالقصر وقد كان لهم إمام يصلى بهم الفريضة والتراويح فى شهر رمضان . وروى، أيضاً عن قصر آخر يبعد عنه حوالى الميل ويعرف بقصر جعفر .

أما فى باليرمو فقد كان حال المسلمين أفضل عما كان سائداً فى بقية الجزيرة فلهم بها رسم باق من الإيمان «يعمرون أكثر مساجدها ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ولهم أرباض قد أنفردوا فيها بسكناهم عن النصارى . والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى (الخليفة) .. ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون فى وقيده (إنارته) فى هذا الشهر المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن» .

«ورغم هذا التسامح الذى أبداه النورمان تجاه المسلمين إلا أن ذلك لم يحل دون قيام مذابح وانتهاكات واسعة أدت إلى القضاء على كل أثر للوجود الإسلامى والحكم العربى بعد سنوات قلائل من زيارة ابن جبير ، وهو ما لاحظه عندما ذكر أن المسلمين مع هذا التسامح «غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم» .

ومن باليرمو رحلت قافلة ابن جبير إلى مدينة عربية مسلمة هى بلدة «علقمة» وهى كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وأيضاً سكان ما حولها من الضياع الممتدة على الطريق من باليرمو إليها جميعاً من المسلمين .

وكانت مدينة أطرابنش هى آخر ما عرف من صقلية من بلاد يعيش بها المسلمون وكانت لهم فيها المساجد مثلما للنصارى بها الكنائس . وقد صلى ابن اجبير العيد بها بعدما ثبت عند حاكم إطربنش (وهو مسيحى) بشهادة عدول أنه قد أقصر هلال شهر رمضان «وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكورة مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان لهم فصلينا صلاة الغرباء» .

ويبدو أن قرب المدينة البحرية من الشاطئ التونسى (مسيرة يوم وليلة فى البحر) كان سبباً فى علاقات وثيقة مع المسلمين أدت إلى تميزها بالتسامح حتى أنه عندما خرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات لم يتعرض لهم أحد «فعجبنا من ذلك ومن أغضاء النصارى لهم عليه» . ويذكر ابن جبير أن البحر كان محيطاً بأطرابنش من ثلاث جهات وأن أهلها يرون أنه لابد للبحر من أن يغمرها فى يوم من الأيام .

وعلى هامش هذه الرحلة الرمضانية التى عاين فيها ابن جبير أحوال المسلمين فى صقلية عنى رحالتنا بالحديث عن خصب أراضى الجزيرة وفوران بركانها الشهير (فيزوف) وما تحفل به من عيون وينابيع معدنية . وتعتبر ملاحظاته الدقيقة عن التأثير الباقى للحضارة الإسلامية فى تنظيم البلاط النورماندى وحياة السكان من أدق وأشمل ما كتب فى هذا المضمار .

فحسب ما دونه ابن جبير كان غليام ملك صقلية يقرأ ويكتب بالعربية و«علامته» أى توقيعه «الحمد لله حق حمده» وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكراً لأنعمه» وهو كثير الثقة بالمسلمين ويلجأ إليهم فى المهم من أشغاله حتى أن المسؤول عن مطبخه رجل من المسلمين وله أيضاً جملة من العبيد السود المسلمين ووزراؤه وحجابه الفتيان كذلك من المسلمين . «وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين» .

وجميع الجوارى فى قصر «غليام» من المسلمات حتى «أن الأفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله»

وقد حدثت بالجزيرة عدة زلازل مرجفة «ذعر لها هذا المشرك فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبودة ومن يدين به» .

أما فى المجتمع المسيحى ذاته فقد تركت حضارة الإسلام طابعها المميز وهو ما يبدو واضحاً من ملاحظتين أهتم ابن جبير بتسجيلهما ، الأولى منهما تتصل بتشييد النصارى «كنائس برسم مرضاهم» تماماً كما فعل المسلمون بتشييدهم للبيمارستانات بمصر والشام ، والثانية متعلقة بأزياء النساء .

ففى أثناء إقامته خلال شهر رمضان بمدينة باليرمو وقع الاحتفال بعيد الميلاد وخرج النصارى إلى كنيستهم الكبيرة (كنيسة الانطاكى) فاسترعى انتباهه أن «زى النصرانيات فى هذه المدينة (هو) زى نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات . خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحفة الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة النساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر

إن من يدخل الكنيسة يوماً ∴ يلق فيها جآذرا وظباء .

وغير تلك الشذرات العديد من الملاحظات المفيدة التى قيدها الأندلسى الأريب فى رحلته الرمضانية بأنحاء جزيرة صقلية أندلس العرب الثانية بأوروبا .

ابن بطوطة فى دمشق

رمضان ٧٢٦ هـ - ٧٤٩ هـ

طنجة ببلاد المغرب خرج محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ، المشهور بابن بطوطة فى ١٧ من شهر رجب عام ٧٠٣ هـ (٢٤ فبراير ١٣٠٤ م) قاصداً حج بيت الله الحرام ، ولكن الفتى ابن الثانية والعشرين سرعان ما أحب الترحال . وتردد فى الأسفار فيما بين الأندلس غرباً وحتى أقاصى آسيا شرقاً . وقد أملى ابن بطوطة رحلاته على الأديب محمد بن جزى الكلبى ، فانتهى من كتابتها عام ١٣٥٦م وأطلق عليها اسم «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .

وقد حل بدمشق الشام غير مرة ، وصادف فيها شهر رمضان من عام ٧٤٩ هـ ومما ذكره متصلاً بالشهر الكريم أن من فضائل أهل دمشق «أنه لايفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية ، فأنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ويأتى كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً» .

ودلل ابن بطوطة على انتشار هذه الفضيلة بما وقع له مع مدرس المالكية فى دمشق وهو الشيخ نور الدين السخاوى ، وهو من أبناء قرية «سخا» بدلتا مصر كما يتضح من اسمه ، والعلة فى تقاربهما واضحة ، إذ كان الشيخ مالكياً شأنه فى ذلك شأن أغلب أهل المغرب والأندلس ومن بينهم ابن بطوطة .

فقد رغب الشيخ السخاوى أن يفطر الرحالة الطنجى عنده فى ليالى رمضان ، ومكث ابن بطوطة بالفعل أربع ليال عند مدرس المالكية ثم أصابته الحمى وأضطر للغياب عنه فإذا بالسخاوى يبعث فى طلبه ويحمله على الحضور إلى داره على ما به من المرض . وبات ابن بطوطة ليلته وعندما حاول المغادرة صباحاً قال له الشيخ أن أحسب دارى كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك وأمر بإحضار طبيب «وأن يصنع لى بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى» .

ويذكر ابن بطوطة أيضاً أن دروس الفقه والحديث كانت تنتظم بالجامع الأموى خلال شهر رمضان

ويحضرها الجم الغفير من الفقهاء وطلاب العلم . وعند إقامته بدمشق فى رمضان عام ٧٢٦ هـ سمع ابن بطوطة جميع صحيح البخارى خلال أربعة عشر مجلساً أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان وآخرها الثامن والعشرون منه . وكان ذلك على «الشيخ المعمر، رحلة الآفاق، ملحق الأصاغر بالأكابر شهاب الدين أحمد بن أبى طالب بن أبى النعم بن حسن بن على بن بيان الدين مقرئ الصالحى المعروف بابن الشحنة الحجازى» . ويبدو أن ابن الشحنة كان هو الآخر مالكى المذهب . إذ سمع ابن بطوطة صحيح البخارى «بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبى محمد القاسم بن يوسف البرزالى الأشبيلى الأصل الدمشقى» . ولعل تلك العلة المذهبية هى التى دفعت بابن بطوطة للجلوس فى دروس ابن الشحنة .

ولم يكتف ابن بطوطة بذلك بل استمع أيضاً إلى جملة من الشيوخ خلال تلك الفترة وقد أجازوه جميعاً ومن بينهم شهاب الدين أحمد المقدسى وعبد الرحمن النجدى ويوسف المزنى الكلبى وعلاء الدين على الشافعى والشريف محيى الدين يحيى العلوى والمحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله الدمشقى وشهاب الدين أحمد بن فلاح الاسكندرى . وكما يظهر من قائمة أسماء المشايخ المطولة أن دمشق كانت آنذاك قبلة لأهل العلم من القدس ونجد ومصر بغض النظر عن مذاهبهم ، وأن الانتماء المذهبى لابن بطوطة لم يقف حائلاً دون تتلمذه على بعض أئمة الشافعية .

ومن الملفت للنظر أن دروس رمضان بجامع دمشق كانت تستوعب أيضاً عدداً لا بأس به من السيدات اللاتى جلسن للتدريس وأجزن رجالاً أيضاً كان من بينهم ابن بطوطة الذى ذكر أن من بين من أجازوه إجازة عامة «الشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحرانى والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى» .

وهكذا فقد أنفق ابن بطوطة أيام رمضان بدمشق موزعاً بين استماع الدروس واستضافات أهل الكرم .

ابن بطوطة فى بلاد الروم
رمضان ٧٣٢ هـ

يعنى ابن بطوطة بتسمية بلاد الروم تلك المناطق من آسيا الصغرى التى نجحت قبائل الترك فى الاستيلاء عليها من أيدى الروم البيزنطيين ، وقد زارها فى بداية ظهور نجم الدولة العثمانية فى المرحلة التى سبقت نجاح آل عثمان فى السيطرة على المدن التى كانت تحكمها الأسر التركية الاقطاعية وهى التى توجت بدخول السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينة ليضع نهاية طال انتظارها للدولة البيزنطية .

وقد أظل شهر رمضان رحالتنا المغربى وهو بمدينة «أكريدور» التى وصفها بأنها عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء . وكان سلطان أكريدور آنذاك يعرف بأبى اسحاق بك بن الدندار بك «من كبار سلاطين تلك البلاد ، سكن ديار مصر أيام أبيه وحج وله سيرة حسنة» .

وخلال الأيام التى قضاها ابن بطوطة بالمدينة أثناء شهر رمضان لاحظ أن حاكمها «يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ويستند إلى مخدة كبيرة» ويجلس الفقيه إلى جانبه يليه ابن بطوطة وبعد ذلك أرباب الدولة والأمراء . وعندما يحين وقت الافطار يؤتى بالطعام إلى مجلس السلطان «فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى صفحة صغيرة عليه العدس مسقى بالسمن والسكر ، ويقدمون الثريد تبركاً ويقولون أن النبى صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبى له» .

وأثناء الشهر الكريم واصل ابن بطوطة اشباع رغبته فى السفر والترحال فانتقل إلى مدينة «قل حصار» ، وسلطانها محمد جلبى وهو أخو سلطان أكريدور ، ومنها إلى مدينة «لاذق» التى كان الترك يسمونها «دون غزلة» أى بلد الخنازير . ربما لكثرة نصارى الروم بها وتربيتهم للخنازير .

وقد صدم ابن بطوطة فيما عاينه من إهمال أهل المدينة لتغيير المنكر حتى فى الشهر الكريم ، إذ لاحظ أنهم «يشترون الجوارى الروميات الحسان ، ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف (مال) لمالكها تؤديه إليه وسمعت هنالك أن الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه ، وذكر لى أن القاضى بها له جوار على هذه الصورة» .

ولم يخفف من وطئة تلك الصدمة فى الفضيلة إلا تنازع الفتيان على استضافته هو ورفاقه .

والفتوة آنذاك تعرف بالأخيات وهي روابط مهنية ذات طابع صوفي ، وبعد نظام الفتوة بمثابة الحد الأعلى لطرائف الحرف التي عرفت في ديار الإسلام ، وقد انتهى تنازع الفتيان إلى الاتفاق على ان يقيم ابن بطوطة لبعض الوقت مع أصحاب الفتى (أخي) سنان وينتقل للإقامة بعد ذلك مع أصحاب الفتى طومان ، وقد أفرط الجميع في إظهار كرم الضيافة بتوفير الطعام والحلوى ومتعة الاستحمام في حمامات الأخيات .

وحضر ابن بطوطة عيد الفطر بمدينة لاذيق ، ليحفظ لنا وصفاً دقيقاً هو الوحيد من نوعه لمظاهر الاحتفال بعيد الفطر المبارك في بلاد الروم الأتراك .

ففي صبيحة يوم العيد خرج الناس إلى المصلى يتقدمهم السلطان في عساكره والفتيان (الآخية) كلهم بالأسلحة . ومن أهم مظاهر الاحتفال التي عنى ابن بطوطة بوصفها بكل دقة موكب أهل الحرف والصناعات ، وهي ذات المواكب التي حرصت الدولة العثمانية على تسييرها في الأعياد ليس في استانبول فحسب بل وفي كل الولايات العربية التي خضعت لحكمهم ، ولا يكاد ما كان يحدث فيها يخرج في كثير أو قليل عن السيناريو الذي سجله ابن بطوطة .

فيذكر الرحالة المغربي أن لأهل كل صناعة يشتركون في الموكب «الاعلام والبوقات والطبول والأنفار وبعضهم يفاخر بعضاً ويباهيه في حسن الهيئة وكمال الشكة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولاً إلى المقابر ومنها إلى المصلى» .

وبعد أن فرغ الجمع من صلاة العيد ، دخل ابن بطوطة وصحبه ، وكانوا في نظر أهل المدينة من الغرباء الواجب ضيافتهم ، إلى منزل السلطان ويعرف بالسلطان «ينتج بك» وهو من كبار سلاطين بلاد الروم حسبما يذكر ابن بطوطة . ويسترعي الانتباه هنا اهتمام السلطان بضيافة الغرباء على ذات السماط الممدود للفقهاء والمشايخ والفتيان بينما أفرد للفقراء والمساكين سماط على حدة وقد امتدح ابن بطوطة همته في ذلك العيد لأنه «لا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني» .

ومما استلفت نظر ابن بطوطة في حكام الترك في تلك الأصقاع أنهم اعتادوا «التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء» ويبدو أن ذلك قد ترك فيه أثراً بليغاً حيث اعتاد في رحلاته المتعددة أن يقابله حكام المسلمين بأصناف الهدايا والصلات والعطايا حتى أنه كان يتزود في أسفاره من عطاياهم ويشترى الجواري الحسان والخيل المسومة دون أن يفتقد المال اللازم للانفاق في حله وترحاله .

أما مدينة لاذيق التي أقام بها ابن بطوطة في أواخر رمضان والأيام التالية لعيد الفطر ، فهي من أشهر مدن الترك بصناعة السجاد ولها شهرة واسعة في انتاج أنواع باهرة من سجاجيد الصلاة الصغيرة .

ومما ذكره ابن بطوطة عن النشاط الاقتصادي بلاذيق أن أكثر الصناع بها من نساء الروم ، خلاف

لبقية مدن آسيا الصغرى فقد كان بها من الروم كثير تحت الذمة ، أى على النصرانية ، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها . ورغم ذلك فإن بها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة .

واختتم رحالتنا ملاحظاته بواحدة تتصل بأغطية الرؤوس ، وقد كانت آنذاك جزءاً من الملابس ، أحد أهم علامات التمييز بين الأجناس والطوائف والملل ، إذ يقرر أن «علامة الروم بها القلانس الطوال ، منها الحمر والبيض ونساء الروم لهن عمائم كبار» .

ثم ثنى ملاحظاته الختامية بالإشارة إلى اشتهار المدينة بصناعة «ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها ، تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها ، وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها» .

ابن بطوطة فى خوارزم
رمضان ٧٣٣ هـ

دخل ابن بطوطة بلاد هذه الدولة الخوارزمية وهى فى عنفوان قوتها بآسيا الوسطى وحاكمها آنذاك هو السلطان المعظم محمد أوزبك خان ، وقضى فى مدنها أغلب أيام رمضان وحضر بها عيد الفطر أيضاً ، ولم يغادر خوارزم إلا لفترة محدودة زار خلالها إقليم «بلغار» فى الروسيا .

ومن تدويناته الأولى خلال هذه الرحلة ملاحظة ألمعية تناول فيها دأب القوم بمن فيهم السلطان على الترحال من موضع إلى آخر بحسب تغير الفصول ، إذ عندما وصل إلى موضع المحلة التى يقيم بها «محمد أوزبك خان» فى غرة رمضان وجد المحلة قد رحلت فعاد مرة أخرى من حيث جاء انتظاراً لاستقرارهم قرب مدينة الماجر على طريق «بش داغ» أى الجبال الخمسة . ويصف ابن بطوطة عاصمة السلطان المتنقلة عندما أقبلت المحلة فرآها مدينة عظيمة «تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ . صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم . فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهى خفيفة المحمل . كذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت» .

وقد أعجب ابن بطوطة بترتيبات السلطان محمد أوزبك فى سفره ، حيث كان ينتقل فى «محلة» خاصة به مع مماليكه وأرباب دولته ، ونفس الأمر بالنسبة لكل واحدة من زوجاته (خواتينه) الأربعة . فإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن فى محلتها بعث إليها يعلمها بذلك فتتهيأ له .

وتحدث رجلنا مطولا عن كل واحدة من الخواتين مبتدئاً بأكثرهن حظوة لدى السلطان وهى الخاتون طيطغلى وهى حسبما سمع من العارفين بأخبارها من «سلالة المرأة التى يذكر أن الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها» وكان السلطان يفضلها عن قريناتها «للخاصية التى فيها وهى أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر» . والخاتون الثانية اسمها كبك خاتون ومعنى اسمها بالتركية «النخالة» والثالثة هى بيلون بنت ملك القسطنطينة «تكفور» وقد رحل معها ابن بطوطة أثناء رحيلها إلى بلاد أبيها لتضع حملها ولكنها بقيت بالقسطنطينة ولم تعد . أما الرابعة فاسمها «أزدوجاً» ومعنى اسمها فى التركية «المحلة» لولادتها فى المحلة. وقد كان لكل واحدة منهن وزيرة (اولو خاتون) وحاجبه (كجك خاتون).

وفى اليوم التالى لحضور السلطان دخل ابن بطوطة إليه بعد صلاة العصر وقد جمع أوزبك خان المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد وضع طعاماً كثيراً ليفطر الجميع معه ومن بين

أصناف الطعام اللحوم المسلوقة من الغنم والخيل . وعندما أهدى ابن بطوطة طبقاً من الحلواء للسلطان جعل الأخير «أصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك» جرياً على عادة الترك آنذاك فى عدم أكل الحلواء ولو تحت التهديد بالموت أو الترغيب بالهدايا والمناصب . وكما هو حال الأتراك أيضاً فقد كان حكام «خوارزم» لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز (لبن الخيل) وتلك كرامتهم» .

وقد أسهب ابن بطوطة فى وصف مظاهر الاحتفال بعيد الفطر ، حيث ركب السلطان فى عساكره وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركب أيضاً الفقهاء والمشايخ والقاضى ولكن صحبه «تين بك» ابن السلطان وولى عهده ومعهم الطبول والاعلام ليصلى بهم القاضى «شهاب الدين» .

وبعد إنقضاء الخطبة ركب السلطان وانتهى إلى برج خشب يسمى «الكشك» تتابعت بعده أكشاك ولى العهد وبقية الأبناء والأمراء ، وجلس الجميع لمشاهدة «الرمى» وهى ذات خدمة الميدان التى عنى بها «المماليك الأتراك بمصر والشام ويعقب ذلك إهداء الخلع للأمراء .

ثم يعقب تلك المراسم نزول السلطان وحريمه وحواشيه إلى «باركة» وهى «بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب ومكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب» ويوضع على يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير ثم يأتى الطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال على الأقل ، وأغلب الطعام من لحوم الغنم والخيل ويتولى «الباروجى» أى مقطع اللحوم خدمة موائد الامراء «ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطاً بالعظم فأنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم» . (!!!)

ومن الطريف أن أول أيام العيد صادف يوم الجمعة ، وبقى الجميع بالمسجد فى انتظار السلطان الذى تأخر فى الحضور (!!!) وأخيراً جاء السلطان وهو يتمايل طرباً وتبسم للسيد الشريف وخاطبه ب «آطا» أى الأب !!

وكان ابن بطوطة قد غادر مملكة خوارزم خلال شهر رمضان لأيام معدودات بغرض السفر لمدينة بلغار لا لشئ سوى مشاهدة ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وهى الظاهرة الجغرافية المعروفة فى صيف بلدان الشمال ، وقد وصلها ابن بطوطة فى رمضان هو وصحبه «فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء أثناء إفطارنا فصلياها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر أثر ذلك» .

وكان ابن بطوطة يتطلع إلى زيارة بلاد الشمال الاسكندنافى التى سماها بلاد الظلمة ولعل ذلك بسبب الضباب الكثيف بها ، وهى على مسافة أربعين يوماً من بلغار إلا أنه عدل عن رغبته «لعظم المؤونة وقلة الجدوى» . ورغم ذلك فقد أورد بعض ما سمعه عن هذه البلاد وعدة من الطرائف . فذكر أن السفر إلى بلاد الظلمة لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار «فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الأظافر فتثبت أقدامها فى الجليد».

وعد الكلاب بمثابة الأدلة لهذه الطريق ولذا كان المسافرون يطعمونها أولا حتى لا تفر منهم إذا ما رأتهم سبقوها إلى الأكل .

ويستفاد مما ذكره إن الاتجار مع بلاد الشمال كان يتم بأسلوب التجارة الصامتة ، تماماً كما كان الحال مع غرب افريقيا . إذ يقوم التجار بوضع ما حملوه «عند الظلمة» ، فإذا كان من الغد «عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه وإن لم يرضه تركه ، فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم وتركوا متاع التجار ..

وقد علق ابن بطوطة على تلك الطريقة بأن الذين يتوجهون إلى هنالك لا يعلمون «من يبايعهم ومن يشاريهم أمن الجن هو أم من الإنس ولا يرون أحداً» .

واهتم ابن بطوطة بسرد أهم أنواع الفراء الواردة من بلاد الشمال وأثمانها أيضاً معتبراً أن أحسنها ذلك الخاص بحيوان «القاقم» وهى «شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر وذنبه طويل يتركونه فى الفروة على حاله» ، أما السمور فهو أقل جودة من فراء القاقم الذى يصل ثمنه إلى ألف دينار ببلاد الهند .

وارجع سبب ارتفاع أثمان فراء الشمال وكثرة الطلب عليه إلى أن «خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل» وإلى أن تجار فارس والعراق فضلا عن أمراء الصين كانوا يعتبرون إرتداء من علامات الثراء والإمارة ، «فيجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق» .

وما أن انتهت احتفالات عيد الفطر بمحلة محمد أوزبك خان حتى شرع ابن بطوطة فى الانتقال إلى بقية مدن خوارزم مثل أكك وسردق وهى لا تبعد كثيراً عن «السرا» حاضرة سلطان خوارزم .

ابن بطوطة فى دهلى

بعدما دخل ابن بطوطة بلاد الهند قصد العاصمة دهلى ليقابل سلطانها ، ملك الهند والسند «أبا مجاهد محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه» . ولما لم يجد السلطان فى المدينة فقد سارع إلى التجول بالمدينة التى وصفها بأنها «مدينة كبيرة المساحة كثيرة العمارة» . وهى تنقسم إلى أربع مدن متجاورات متصلات أقدمها المسماة «دهلى» وهى «من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة» ويليها مدينة «سيرى» ثم «تغلق أباد» والرابعة تسمى «جهان بناه» . وذكر أن السلطان محمد شاه أراد أن يضم هذه المدن الأربع داخل سور واحد فبنى منه بعضاً وترك بناء باقية لعظم ما يلزم فى بنائه .

وقد دون ابن بطوطة مشاهداته فى الهند ومدنها المختلفة واستغرق جزءاً كبيراً من مدونات رحلته فى سرد ما شاهده بالهند من عجائب النباتات والحيوانات وأصناف البشر وما عليه الهندوس والبراهمة من عادات وطقوس شدت انتباهه بقدر ما أثارت تعجبه حيناً وسخطه أحياناً .

وبعد وصفه لطقوس احراق الزوجة لنفسها وفاء لزوجها المتوفى من أكمل وأفضل النصوص التى دونت فى العصور الوسطى عن هذه الطقوس ، وهو ينبهنا أولاً إلى أن «إحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ونسبوا إلى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها ..» .

وقد لاحظ أن الهنود الكفار يستأذنون الحاكم المسلم أولا قبل إجراء الحرق وصادف أن شاهد ابن بطوطة بنفسه عملية إحراق ثلاث من النسوة مات رجالهن فى إحدى المعارك ، فبعد أن أمضين ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا أتت النساء إليهن من كل جهة فى صبيحة اليوم الرابع وعندئذ ركبت كل واحدة منهن فرساً وهى متزينة متعطرة «وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وأقاربها معها وبين يديها الأطبال والأبواق والأنقار وكل إنسان من الكفار يقول لها أبلغى السلام أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى وهى تقول نعم وتضحك لهم» .

ويواصل ابن بطوطة وصفه الدرامى للحرق فيذكر أن النسوة بعد وصولهن إلى منطقة كثيفة الظلال بها قباب وصهريج ماء ، نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ثم أرتدين ثياباً من قطن خشن غير مخيط وذهبن إلى النار الموقدة وقد ازدادت توهجاً بالقاء زيت

الجلجلان عليها ووسط صخب الطبول والأبواق تتقدم المرأة نحو النار وقد حجبت بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها .

«فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف ، وقالت لهم وهى تضحك : أبالنار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة (تحية) للنار ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأنقار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج» . ومن الطريف أن ابن بطوطة لما رأى ذلك كاد يسقط عن فرسه لولا أصحابه الذين تداركوه بالماء فغسلوا وجهه وانصرف قبل أن يشهد محرق بقية زميلاتها .

وقد اتفق لابن بطوطة أن صار قاضياً لدار الملك فى دهلى وهو ما أتاح له القرب من بلاط السلطان ليشهد ما يدور فيه من مظاهر الاحتفال بالمناسبات الدينية وما يحاك فيه أيضاً من دسائس ومؤامرات .

وأول ما سجله رحالتنا من ملاحظات تتصل برمضان فى الحاضرة دهلى هو حرص المسلمين الشديد على إقامة التراويح . ففى معرض حديثه عن «حوض الخاص» وهو خزان لمياه الأمطار على جوانبه نحو أربعين قبة يذكر ابن بطوطة أن أهل الطرب يسكنون حوله ، ويعرف موضعهم لذلك «بطرب أباد» ، ولهم «سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة» وكانت النساء المغنيات الساكنات بالسوق «يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤم بهن الأئمة وعددهم كثير ، وكذلك الرجال المغنون» .

أما ليلة العيد ، وما يليها من أيامه فقد أهتم ابن بطوطة بمايجرى خلالها من رسوم واحتفالات ملكية، بحكم وجوده فى منصب القضاء . وكما هى العادة فى عصر المماليك بمصر والشام كان سلطان دهلى يرسل بالخلع والملابس الجديدة فى ليلة العيد . لأرباب الدولة والأعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار حتى يتسنى لهم حضور احتفالات العيد صباحاً وهم فى أزهى حلة ، ويخرج السلطان صبيحة العيد ليركب واحداً من بين ستة عشر فيلا أعدت له وفوق كل منها شطر (راية) من «الحرير المرصعة بالجواهر ، قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر» .

وينطلق الموكب الرسمى صحبة السلطان راكب الفيل ، وبه العبيد والمماليك ، وقد تزينوا بالذهب والجواهر ، وكذا كبار رجال الدولة والقضاة «وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة .. كل واحد منهم على فيل وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ، ويركب المؤذنون أيضاً على الفيلة وهم يكبرون».

ويستمر الموكب الذى تشارك فيه طوائف الجند بأعلامها وطبولها حتى يصل السلطان إلى باب

المصلى فيقف على بابه ويأمر بدخول القضاة وكبار الأمراء وكبار الأعزة ثم ينزل السلطان ويصلى الامام ويخطب .

وبعد الصلاة تقام الاحتفالات بالقصر ، فينصب فى فنائه الكبير باركة (خيمة) كبيرة ، ويضع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ويجعل منها ثلاثة صفوف ، ويجعل بين كل شجرتين كرسياً ذهبياً عليه مرتبة مغطاة» .

ويجلس السلطان فى صدر الخيمة على سرير الملك «وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك وكل قطعة يحملها جملة رجال لثقل الذهب .. ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان» . وبعد جلوسه ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : بسم الله ، يتقدم الناس للسلام عليه وأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء ثم يجلس الجميع إلى مائدة حافلة بالأطعمة ويوزع السلطان نقودا ذهبية على كل من للسلام عليه يأتي للسلام عليه، وتأتى هذه الدنانير من كل من بيده قرية منعم بها عليه يضعها فى صرة مكتوب عليها اسمه ويلقيها فى طست ذهب ليوزع السلطان منها وبعد الطعام يأتى أهل الطرب ، فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسبيات فى تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للأمراء والأعزة ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهبهن لإخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك .

وتتم هذه الاحتفالات بعد عصر أول أيام العيد فى إيوان القصر المعروف بالمشور وسط روائح البخور التى تنطلق من المبخرة العظمى «وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة فإذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال . وفى داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون يوقدون العود القمارى والقاقلى والعنبر الأشهب والجاوى حتى يعم دخانها المشور كله . ويكون بأيدى الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صباً» .

وخلافاً لسائر بلاد الإسلام تستمر احتفالات عيد الفطر وكذلك عيد الأضحى لمدة سبعة أيام يتكرر فى اليوم الثانى منها ذات المظاهر الاحتفالية التى تمت فى اليوم الأول من طعام وغناء ورقص وفى اليوم الثالث يزوج السلطان أقاربه وينعم عليهم وفى اليوم الرابع يعتق العبيد ويؤجل عتق الجوارى إلى اليوم الخامس ، ثم يأتى فى اليوم السادس ليزوج العبيد بالجوارى وفى اليوم السابع يكون ختام الاحتفالات باعطاء الصدقات لكل فقير يقصد القصر .

❮ ❮ ❮

ابن بطوطة فى جزر المالديف
أو ذيبة المهل

حط ابن بطوطة رحالة فى جزائر ذيبة المهل (جزر المالديف حالياً) قبل مقدم شهر رمضان بأيام قلائل ، قضاها جميعاً فى التنقل بين الجزر وملاحظة السلوك الاجتماعى لسكانها وما يزرعونه من أشجار ونباتات

واسترعى انتباهه كثرة المساجد الحسنة فى هذه الجزائر ، ومعظمها من الخشب وميل أهلها إلى النظافة والتنزه عن الأقذار حتى أن أكثرهم «يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلنة وغيرها» ومن عادات أهلها أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وماء الورد فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه وحسبما يستفاد مما أورده ابن بطوطة فقد كان زيهم هو «الفوطة» المعروفة فى بلاد الهند واليمن ولكنهم لا ينتعلون فجميعهم «حفاة الأقدام من رفيع ووضيع» وسبب ذلك فيما يبدو أن أزقتهم «مكنوسة نقية تظللها الأشجار . فالماضى بها كأنه فى بستان» ومع ذلك كانت توضع عند أبواب الدور آنية الماء ليغسل فيها كل داخل إلى الدار رجليه قبل أن يمسحها بحصير غليظ من الليف عند الباب .

وفى هذه الجزر تزوج ابن بطوطة بعد قصة هى الغاية فى الطرافة إذ عرض عليه أحد وزراء الجزر ويعرف باسم «سليمان» أن يتزوج بابنته ولكن ابن بطوطة تطير منها لوفاة زوجين لها قبل أن يدخلا بها وعزم على الرحيل فطالبه الوزير بالهدايا التى أرسلها له وبالجارية التى وهبها له وكانت تعرف باسم «قل ستان» أى زهرة البستان وكانت تعرف الفارسية . وعندئذ لم يجد الرحالة الأديب مفراً من الإقامة وقبل على مضض الزواج بابنة الوزير فلما كانت ليلة الزفاف لم يحضر الوزير لأن العروس رفضت الزواج بابن بطوطة فحمد الله وقبل الزواج بإحدى سيدات القصر عوضاً عنها «فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير» .

وكما حدث فى دهلى تولى ابن بطوطة القضاء فى ذيبة المهل ، فحاول قدر ما استطاع تغيير بعض عادات السكان التى كانت مترسخة فيهم من أيام الكفر وأصاب نجاحاً فى منع المطلقات من البقاء فى بيوت أزواجهن وإلزام أهل الأسواق بالتوجه إلى المساجد عند سماع الأذان . ولكنه فشل

فشلا ذريعاً فى منع النسوة من ترك صدورهن عارية . وقنع منهن بتغطية هذا الجزء إذا ما أردن التقاضى فى مجلسه .

وثمة ملاحظة هامة اتحفنا بها ابن بطوطة وهى أن أهل هذه البلاد على مذهب مالك السائد فى بلاد المغرب لأن حاكم الجزيرة أسلم على يدى مغربى اسمه «أبو البركات البربرى» وكان حافظاً للقرآن الكريم . وتبعه أهل الجزيرة بعد أن نسب إليه دفعه لعفريت من الجن كان يضرب الجزيرة فى كل شهر وذلك بفضل تلاوته للقرآن عند شاطئ البحر .

ومثلما نجد الآن فى العديد من بلدان آسيا ، فقد كانت إمرأة هى التى تحكم الجزيرة وعد ابن بطوطة ذلك من عجائب الجزر وهى السيدة خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالى أما زوجها فهو الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى . ونظراً لطرافة ذلك فى نظر مغربى مثل ابن بطوطة فقد اهتم بأن يورد نص الدعاء لها فى خطبة الجمعة . أن يقول الخطيب «اللهم أنصر أمتك التى اخترتها على علم على العالمين . وجعلتها رحمة لكافة المسلمين» .

عندما نزل ابن بطوطة إلى الجزيرة أخرج له نبات التانبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم وبعث الوزير إليه بكسوة وضيافة فيها الأرز والسمن وجوز النارجيل والعسل المصنوع منه فضلا عن مائة زلف ودعة للنفقة مقام النقود . وما هى إلا أيام قلائل حتى دخل شهر رمضان فأرسل الوزير فى طلب ابن بطوطة فوجد لديه «الامراء والوزراء ، وأحضر الطعام فى موائد يجتمع على المائدة طائفة .. وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والموز المطبوخ ويشربون بعده عسل النار جيل مخلوطاً بالأفاوية وهو يهضم الطعام».

ولم يكتف الوزير بذلك بل أعطى للرحالة المغربى داراً واسعة ليضيف فيها المسلمين الذين قدموا على الجزيرة وهم من «فقراء العرب والعجم وبعث له أيضاً . «خمساً من الغنم وهى عزيزة عندهم وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير «فبعث ذلك كله إلى دار الوزير فطبخ لى بها ، وبعث الفرش وأوانى النحاس» وأفطر الجميع بعد ذلك بدار السلطانة مع الوزير ولما كانت الوليمة معدة للمتصوفة الفقراء الواردين على «ذيبة المهل» إكراماً لابن بطوطة فقد حضرها الوزير وأرباب الدولة «وكان كل من يأتى من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمى بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها فأخذها الفقراء» .

وكان من أمرهم بعد تناول الافطار أن يجلس الجميع لسماع القرآن أولا ثم أخذ المتصوفة فى السماع والرقص على عادتهم «وأعدت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلوى إلى أن خمدت» .

ولما تم شهر رمضان بعث إليه الوزير بكسوة . وخرج الجميع إلى المصلى فى صباح يوم العيد «وقد زينت الطريق التى يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى وفرشت الثياب فيها وكل من له على

طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النار جيل وأشجار الفوفل والموز ومد من شجرة إلى أخرى شرائط وعلق منها الجوز الأخضر» .

وأثناء مرور موكب الوزير يقوم أصحاب الدور بالقاء أثواب الحرير أو القطن على رجليه فيأخذها العبيد مع الودع (النقود) الذى يجعل على طريقه أيضاً ، ذلك كله والوزير سائر فى طريقه وفى رجليه النعل وجميع الناس سواء حفاة والأبواق والطبول بين يديه والعساكر أمامه وخلفه وجميعهم يكبرون حتى يصلوا إلى المصلى أما ملابس الوزير فهى «فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور» أى قطع من الحرير أو القماش .

وبعد الفراغ من الصلاة وخطبة العيد ركب الوزير «محفة» وقام الأمراء والوزراء برمى الثياب أمامه على عادتهم ، ودخل إلى القصر استعداداً للوليمة التقليدية . وفى القصر مدت الموائد بالطعام ثم الفوفل والتانبول (نباتات تزكى رائحة الفم وتساعد فى هضم الأكل) وبعد ذلك أتى «بصحفة صغيرة فيها الصندل ، فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل» .

ومن الغريب أن نجد تأثيرات مصرية واضحة فى هذه الجزر البعيدة ، ليس فقط فى قصادها من المصريين أو الملابس المصرية (الفرجيات) التى تزيى الوزير بها فى يوم العيد بل وفى عادة أكل الأسماك المملحة فى أول أيام العيد وهى عادة مصرية شاهدها وعاينها المؤرخون والرحالة بمصر خلال العصور الوسطى وما زالت حية ماثلة للعيان إلى يومنا هذا ، فيذكر ابن بطوطة أنه رأى على بعض طعامهم يومئذ «حوتاً من السردين مملوحاً غير مطبوخ أهدى لهم من كولم وهو فى بلاد المليبار كثير» فأخذ الوزير سردينة وجعل يأكلها وابن بطوطة ينظر إليه ، فطلب منه أن يأكل واحدة لأنها أى السردينة ليست ببلاد ذيبة المهل فاعتذر ابن بطوطة لانها غير مطبوخة فرد الوزير بأن السردين مطبوخ، ولكن ابن بطوطة أصر على موقفه مؤكداً للوزير أن البلاد التى جاء منها يوجد بها هذا النوع من الأسماك .

ابن بطوطة فى مالى

قبلة أن يضع ابن بطوطة عصا التسيار ويقر له القرار فى بلده طنجة ساقته الأقدار وولعه بالأسفار إلى مملكة «مالى» أكبر وأشهر الممالك الإسلامية التى تعاقبت على حكم غرب افريقيا المعروفة لدى المسلمين ببلاد السودان الغربى أو بلاد التكرور .

وقد وصل ابن بطوطة إلى هذه المملكة من مصر عبر السودان ونزل بمحلة «البيض» بمدينة مالى أى الحى الذى كان ينزل به العرب من مغاربة ومصريين ويمانيين وجميعهم فى عرف السكان الافارقة من البيض . وخلافاً لما لقيه ابن بطوطة فى معظم ديار الإسلام من كرم وبحبوحة العيش فقد لازمه سوء الحظ منذ الأيام الأولى لإقامته فى مالى . فبعد عشرة أيام من وصوله أرسلت له بنت عم السلطان «عصيدة تصنع من شئ شبه القلقاس يسمى «القانى» وهى عندهم مفضلة على سائر الطعام» ولما أكل منها هو وخمسة من رفاقه أصابهم المرض وتوفى أحدهم وأغمى على ابن بطوطة أثناء توجهه لأداء صلاة الصبح . عندئذ لجأ الرحالة المغربى إلى أحد جيرانه فى محلة البيض وكان مصرياً سائلاً إياه دواء مسهلاً «فأتى بشئ يسمى «بيدار» وهو عروق نبات . وخلطه بالأنسيون والسكر ولته بالماء فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة وعافانى الله من الهلاك ولكنى مرضت شهرين» .

وعند حلوله بمالى كان حاكمها هو السلطان سليمان «أو منسا سليمان» الذى وصفه بأنه «ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء» . ذلك أنه بعث إليه ضيافة مع رجال القاضى يصف ابن بطوطة مقدمها بطريقة لا تخلو من السخرية اللاذعة إذ جاء ابن الفقيه عبد الواحد من داره مسرعاً حافى القدمين «فدخل على وقال : قم قد جاءك قماش السلطان وهديته . فقمت وظننت أنها الخلع والأموال. فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقلية .. وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشئ الحقير» .

ولما دخل شهر رمضان كان حنق ابن بطوطة على السلطان البخيل قد بلغ مداه فخاطب ترجمان السلطان المدعو دوغا «وهو من أفاضل السودان وكبارهم» واتفق معه على أن يفاتح منسا سليمان فى أمر إعراضه عن القيام بواجب الضيافة والكرم تجاه ابن بطوطة . «فجلس فى أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له : إنى سافرت فى بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك أربعة أشهر ، ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيئاً فماذا أقول عنك عند السلاطين» .

ولم يكن هناك أعجب من جرأة ابن بطوطة سوى إجابة منسا سليمان الذى زعم أنه لم يره أو يعلم

به . فقام القاضى وابن الفقيه وقد رأيا فى بخله ما يمس سمعتهم لدى الرحالة الشهير ، فردا عليه وقالا «إنه قد سلم عليك وبعثت إليه الطعام» فأسقط فى يده ، واضطر إلى أن يأمر له بدار أنزل بها ونفقة تجرى عليه» ثم أعطى القاضى والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثا (من الذهب) وأحسن على عند سفرى بمائة مثقال ذهباً» ورغم فرحة ابن بطوطة بتلك الهدية الذهبية ، فإن المعروف لدى أهل ذلك الزمان أن بلاد السودان الغربى كانت هى المصدر الرئيسى لتبر الذهب . وكان بها رخيصاً حتى أنه يباع مقابل الملح وزناً بوزن .

أما رسوم منسا سليمان فى أول أيام عيد الفطر فهى لا تختلف كثيراً فى جوهرها عما شاهده ابن بطوطة فى سائر ديار المسلمين .

ففى الصباح خرج الناس إلى المصلى وهو قريب من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان» وفى هذا اليوم لبس السلطان «الطيلسان» . لأن أهل السودان (الغربى) لا يلبسون الطيلسان إلا فى العيد ماعدا القاضى والخطيب الفقهاء فأنهم يلبسونه فى سائر الأيام ولعل ذلك راجع إلى تأسيهم بحال أقرانهم فى مصر أثناء الحكم الفاطمى . خاصة وأن الفاطميين كانوا يسيطرون على الشمال الافريقى ويهيمنون على طرق التجارة مع بلاد السودان . ويسير الناس عند خروجهم للصلاة بين يدى السلطان وهم يهللون ويكبرون «وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخله السلطان وأصلح من شأنه ثم خرج إلى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة» .

وبعد انقضاء الصلاة وربما كان ذلك جرياً على عادة الدعاة الأولى فى تلك الاصقاع ينزل الخطيب ليلجلس أمام السلطان ويتكلم معه مطولاً «وهناك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه» .

وبعد إلى هذا الفاصل الخطابى الذى لم ير ابن بطوطة مثيلا له فى غير مالى يغادر منسا سليمان المصلى إلى الجلوس بقصره بعد صلاة العصر ، فيجلس على مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات وتسمى «البنبى» وحوله السلحدارية بأنواع السيوف والرماح والدروع والدبابيس وهى جميعاً معلاة بالذهب والفضة «ويقف على رأسه أربعة من الامراء يشردون الذباب وفى أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج» ويحضر هذا المجلس القاضى والخطيب والفرارية أى الأمراء . وفى الاحتفال بالعيد يقوم الترجمان «دوغا» بالعبء الأكبر ، إذ يأتى بنسائه الأربع وجواريه وهن نحو مائة «وعليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة» . وينصب له كرسى يجلس عليه ويضرب «آلة من قصب وتحتها قريعات» . ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله وتغنى النساء والجوارى معه ويلعبن بالقسى ، ويساعده فى هذا الغناء ثلاثون من غلمان يرتدون عباءات حمراء وعلى رؤوسهم «الشواشى البيض» وقد تقلد كل منهم طبلة يضرب عليها .

وبعد أن ينتهى «وغا» يأتى بعض الصبيان ليؤدوا بعض الحركات البهلوانية «ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا بالسيف لعباً بديعاً» ، وفى أعقاب ذلك يأمر السلطان لدوغاً بمائتى مثقال من تبر الذهب (حوالى ٨٥٠ جراماً) ، ولا يعطى بقية الامراء (الفرارية) عطاياهم إلا فى اليوم التالى .

والواقع أن هذا الاحتفال الرسمى يشبه فى جانب منه (الانشاد ولعب الصبيان خاصة) ما كان يجرى فى البلاط الفاطمى بالقاهرة .

أما الاحتفالات ذات الطابع الشعبى وهى حسبما يذكر ابن بطوطة قديمة سابقة على الإسلام ، فتبدأ بعد انتهاء عروض دوغا ، ويؤديها شعراء شعبيون بعد شعرهم الذى يلقونه بمثابة وعظ للسلطان ، كأن يقولوا له «أن هذا البنبى الذى تجلس عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا ، فأفعل أنت من الخير ما يذكر بعدك» .

ولا يؤدى الشعراء دورهم هذا على طريقة الشعراء العرب بل على ذات النسق الافريقى الأسطورى ، إذ يدخل كل واحد منهم «فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق (طائر) وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم» . ويعقب فراغ الشعراء المختفين داخل هذه الهيئات الكاريكاتيرية صعود كبيرهم على درج البنبى ليضع رأسه فى حجر السلطان . ثم يصعد إلى أعلى «البنبى» فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر وهو يتكلم بحديث لم يفقهه ابن بطوطة أو يهتم بالاستفسار عنه ، ويكون نزوله إيذاناً بانتهاء احتفالات سلطان مالى بأول أيام عيد الفطر .

العياشى فى القاهرة
١٠٧٢هـ

عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى (نسبة إلى إحدى قبائل البربر) وقد زار مصر غير مرة وهو فى طريقه للحج ضمن قافلة الحج المغربى . وقد ترك لنا مذكراته فى رحلاته للحج وهى التى نشرت باسم الرحلة العياشية . وإن لم يهتم بإيراد أى ملامح للحياة الاجتماعية فى البلاد التى مر بها من الجزائر إلى طرابلس الغرب مكتفياً بتسجيل ملاحظاته اليومية فى القاهرة وبلاد الحجاز .

وفى رحلته الأخيرة إلى مصر عام ١٠٧٢هـ (١٦٦٢م) . أحصى العياشى مدة سفره من «مصراته» إلى بر إمبابة على الضفة الغربية للنيل ، فوجدها خمسين يوماً منها خمسة أيام إقامة والباقى قضاها فى السفر . وقد وصل صحبة بعض حجاج المغاربة الذين لم يأبهوا لأخبار الطاعون الذى اجتاح مصر . ونزل الجميع خارج إمبابة «فى يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان» .

ويدخل مادونه العياشى عن محطته الأولى بمصر فى عداد انبهار مسافر الصحراء الجرداء بخصب وادى النيل ووفرة الغذاء الرخيص فى قراهالمتصلة العمران دون إنقطاع حتى أنه يذكر أن الناس (أى قافلته) قد تسارعوا لشراء الفاكهة واللحم «لبعد عهدهم بذلك» .

ويقص العياشى إمبابة فى إحدى سنوات إنخفاض فيضان النيل بأنها «مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكائل ومساجد على هيئة ما فى القاهرة وهى فى الجانب الغربى فى مقابلة مدينة بولاق بالجانب الشرقى . وأقمنا بها يومنا فى أرغد عيش شبعاً وريا وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذى هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة وأثر بركته ظاهر للعيان فى مائه وترابه وقراه ومدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصباً مع اتصال العمارة نحو الشهر» .

ويقصى العياشى فى رحلته أن عادات الفلاحين فى قرى النيل (غربى الدلتا والوادى) أن يخرجوا لملاقاة حجاج المغاربة ليتخذوا منهم الأصحاب حتى يودعوا عندهم الإبل ويتركوها «أمد الإقامة طلوعاً ورجوعاً» .

وفى السادس والعشرين من رمضان تحرك العياشى ورفاقه من إمبابة قاصدين ميناء القاهرة النيلى (بولاق) فهاله أن «وجد النيل فى غاية ما يكون من النقصان وقد انحسر الماء عن بقاع كثيرة فى وسطه» وكان قد عاين قبل ذلك بأيام قلائل ارتفاع الفيضان حتى أغرق الطرق بين بعض قرى الدلتا . وهذه الظاهرة كثيراً ما يتكرر وصفها فى كتب مؤرخى العصور الوسطى حين يقولون «وطلع

مد النيل ثم انحط سريعاً » .

وعند وصوله إلى بولاق اكترى العياشى وحجاج المغاربة ثلاثة من الإبل العجيبة» وإن حمل ثم ذلك على الحمالين لقسوتهم عليها . «وقد سخر الله تعالى الإبل لهم ونزع الرحمة من قلوبهم يحملون عليها القناطير المقنطرة من الأمتعة وأحمال الذهب والتبر وغير ذلك حتى لا يظهر من الجمل إلا رأسه» .

وفى القاهرة لاحظ العياشى أن الوباء فاش فيها كما أبلغت قافلة الحج المغربى ولكنه «ضعيف حيث كان يصلى فى الجامع الأزهر كل يوم على عشرة» من الموتى فقط !! ولم يستطع الرحالة المغربى أن يحقق أمنيته بالإقامة قرب الجامع الأزهرلإنشغال الدور بالحجاج من الشمال الافريقى وقد كان أحرص الناس على الاحتفاء برمضان فى الأزهر . فطرح أمتعته هو وأصحابه «بوكالة قايتباى (لعله يقصد وكالة الغورى) بباب الأزهر الغربى وجعلنا نتطلب داراً للسكنى فما وجدنا إلا آخر النهار بمحل يقال له البرديكية وجدنا هناك داراً واسعة فيها عدة مساكن إلا أنها بعيدة عن الأزهر بنحو أربعمائة خطوة قريبة من مشهد الحسين رضى الله عنه» .

ورغم أن العياشى ورفاقه قد جهدوا أنفسهم طيلة النهار فى البحث عن هذه الدار وحملوا إليها أمتعتهم بل ودفعوا أجرة سكنها مقدماً وكانت ثلاثة وسبعين ونصفاً من الفضة . إلا أنهم باتوا تلك الليلة بالجامع الأزهر لأنها ليلة السابع والعشرين من رمضان وقد لاحظ أن «كل الليالى بذلك المسجد كليلة القدر لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم أناء الليل وأطراف النهار ولا تنقطع منه العبادة ليلاً ولا نهاراً ولا صيفاً ولا شتاء فهو عديم النظر فى مساجد الدنيا بأجمعها حاشا المساجد الثلاثة لما لها عند الله من أعظم المزايا» وهو يعنى بذلك المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى .

ولما كان رمضان هو شهر القرآن وفيه يقبل الناس على قراءته وتجويده فقد هب العياشى لزيارة «شيخ القراء بالقاهرة ورئيس أهل التجويد بلا مراجعة الشيخ سلطان» وقد سلم الشيخ عليه ودعا له وكان ذلك هو غاية ما أراده العياشى وقصاد الحج المغاربة من تلك الزيارة .

ومن الملاحظات الطريفة التى أوردها العياشى وهو يصف سلطان شيخ القراء أن فى خلقه حدة حتى أنه لا يترك أحداً يقبل يده . وإذا ما ألح أحد فى طلب الدعاء منه «انتهره ويمضى ويتركه وما يحتمل للطلبة الذين يقرأون عليه أدنى غلطة تقع منهم بل يبالغ فى التفريغ والتوبيخ بل ربما زاد الى الشتم .. والناس يحتملون ذلك منه لانفراده بذلك مع تقشفه وورعه وصبره على ملازمة وظائف العبادة» .

ويسجل العياشى فى ندم وأسى أنه لم يحضر إلى الأزهر فى يوم التاسع والعشرين من رمضان لأسباب ثلاثة أولها لبعد منزله عن المسجد وتلك واحدة من الغرائب إذ استكثر الأربعمائة خطوة وهو الذى سار فى الصحراء خمسة وأربعين يوماً دفعة واحدة من مصراته إلى مصر . والسبب الثانى هو

لحقه من الكسل بسبب الصوم .

أما السبب الثالث فكان ذلك اللغط الذى ثار فى القاهرة حول تعيين أول أيام العيد . فقد أشيع ما ذكره البعض نقلاً عن المنجمين المعدلين بالقاهرة فى ذلك اليوم «بأن الهلال يرى ليلة الثلاثين فيكون الشهر تسعاً وعشرين .. وانتشر ذلك فى الناس واعتقدوه حتى قيل أن الباشا طلب من قاضى العسكر الحنبلى أن يحكم بذلك فأبى جزاه الله خيراً وقال لا حكم حتى يرى الهلال» .

وبالفعل صعد قاضى الشافعية مع الشهود العدول فى ليلة الثلاثين إلى أعلى المئذنة ويعنى بذلك مئذنة المنصور قلاوون بالنحاسين وبقى الجميع فوقها من قبيل الغروب حتى انتشر الظلام «فلم يروا شيئاً فأوقدوا المصابيح فى المئذنة كما هى عادتهم فى ليالى الشهر كلها فعلم الناس أن الغد من رمضان وكذب الله أقوال المنجمين» .

وبعد أن أتم العياشى صيام رمضان بالقاهرة نجده يجرى على عادة المصريين فى الخروج لزيارة المقابر ، فيخرج عشاء إلى القرافة الصغرى ، ولكنه لم يستكمل مراده من الزيارة فعاد للقاهرة لشدة الحر من ناحية ، ومن ناحية أخرى «لكثرة الزحام بالمقابر لأن عادة نساء مصر أن يخرجن ليلة العيد ويومه إلى المقابر ويبقين هنالك برهة من الزمان» ورغم أن العياشى قد ذهب إلى القرافة بغرض الزيارة والتبرك بمقابر الأولياء والمعتقدين إلا أنه لم يجد أى غضاضة فى أن يصف عادة المصريات بأنها «عادة مذمومة فى سائر الأيام فما بالنا بيوم العيد إنه يوم أكل وشرب ومرح وسرور وزيارة القبور تذكر بالآخرة وتثير فى القلب حزناً» .

ولم يفت العياشى أن يصف لنا ما يجرى بالقاهرة فى أول أيام العيد وخاصة تبكير الناس بالذهاب إلى صلاة العيد وقد حضرها العياشى فى الجامع الأزهر حيث خطب الخطيب «خطبة حسنة جلها فى أحكام زكاة الفطر» . وبعد فراغ الناس من الصلاة والخطبة أخذوا يتزاورون ووقف المشايخ لزيارة الناس وقابل العياشى العديد من المغاربة الذين يتلقون العلم بالأزهر .

وعندما ذهب الرحالة المغربى صحبة رفاقه لزيارة الشيخ إبراهيم الميمونى قدم لهم «كعكاً حسناً» وتلك عادة مصرية تعود إلى العصر الفاطمى على أقل تقدير وما زالت مرعية إلى اليوم . وقد ظن العياشى أن فى ذلك مخالفة لعادة الوم من أهل مصر الذين «يتكارمون بينهم بشراب البن الذى يسمونه القهوة» ولعله فى ذلك لم يفرق بين تقاليد يوم العيد والعادات اليومية .

وقد انتهز الرحالة المغربى فرصة الحديث عن القهوة ليبين أنها فى بلاده «ليست بطعام ولا دواء ولا شهوة» وأنها أيضاً موضع جدل عنيف فى المجتمع المصرى وقد انقسم العلماء فى شأنها بين التحريم والإباحة وعزز كل فريق حججه بالنظم والنثر وإن كان «أكثر العلماء مائلين فيها إلى الإباحة وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم والمشارب زاعمين أنها تعين على السهر فى العبادة ويستعين بها الطلبة كثيراً فى المطالعة الليلية ولا شك أنها تزيل ما يحصل فى الرأس من

تدويخ بسبب السهر أو خلو المعدة صباحاً فإذا شربها الإنسان وجد فى أعضائه نشاطاً» .

ومع معارضته الظاهرة لشرب القهوة فقد أشار العياشى إلى وجود مقاه عامة يعد فيها شراب البن الذى ذاع وانتشر فى القاهرة لفوائده التى ذكرها فضلاً عن ميل الناس لتقليد الأمراء فى شربها .

وآخر ما عاينه العياشى من مظاهر الاحتفال بعيد الفطر بالقاهرة كانت تلك العروض المفتوحة التى كانت تجرى أسفل القلعة (ميدانها الحالى) ويشارك فيها المشعوذون والبهلوانات الذين يسيرون على الحبال «ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب» . ويعقب على ذلك فيقول «وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد وحيل عربية قد سخرت لهم أنواع الحيوانات فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخراً» .

جيرار دى نرفال فى استانبول

«جيرار دى نرفال» . رحالة فرنسى تنقل بعيد الثلث الأول من القرن الماضى بين بعض ولايات الدولة العثمانية ، وذلك أثناء حكم السلطان عبد المجيد ، ودون مشاهداته فى مجلد ضخم أسماه «رحلة إلى الشرق» .

وحضر نرفال فى استانبول شهر رمضان من عام ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣م) . ودون فى كتابه بعض ملاحظات متفرقة نستنتج منها أن حاضرة الدولة العثمانية كانت شديدة الاحتفاء والاهتمام بمقدم الشهر الكريم مراعية لحرماته فى الغالب الأعم ، رغم أنها تضم حسبما يذكر نرفال «أربعة شعوب مختلفة تعيش فيها دون أن يكون كرهها بعضها للبعض كبيراً ، فالأتراك والأرمن واليونانيون واليهود . أبناء أرض واحدة ويتحملون بعضهم البعض أكثر مما يتحمل فى بلادنا (فرنسا) أبناء المقاطعات المختلفة أو أفراد الأحزاب المختلفة بعضهم البعض» . أنه من المثير حقاً أن تلتزم هذه المدينة الحافلة بأصناف البشر من كل حدب وصوب وديانة بتقاليد رمضان رغم أن كل مظاهر الحياة فيها كانت تنبئ عن توجهها شطر الغرب الأوروبى تستلهم منه قشور الحضارة الاستهلاكية حتى من قبل أن يجعل أتاتورك من هذا التحول التاريخى حقيقة سياسية . فلقد شاهد الفرنسى ليلة الرؤية ، مدينة استانبول وهى ترفل فى أضواء مأذن المساجد وقبابها احتفالا برؤية هلال رمضان ، وعندما أطل عليه صباح أول أيام الشهر كانت المدينة ، مثل مدن الشرق جميعها ، قد أغلقت كل حوانيتها ، بما فى ذلك حوانيت غير المسلمين الذين لم يجدوا من يبتاع شيئاً منهم فى الأوقات المبكرة من النهار ، وشتان الفارق بين مارآه نرفال فى آخر أيام شعبان من حركة فى الأسواق ، وما صدمه من سكون فى أول رمضان ، حتى أن السوق المصرية التالية لسوق السمك كانت مغلقة إغلاقاً محكماً رغم أن سلعها تقتصر على التوابل والأصباغ والمنتجات الكيميائية . وفى مبالغة أدبية يلخص نرفال حال طرقات استانبول فى أنها «لم يكن يسكن الطرقات إلا الكلاب وقد أدهشها خلال الأيام الأولى من رمضان أنها لم تعد تتلقى غذاءها اليومى من حانوت مجاور للسوق يشغله أرمينى» . وقد تناول نرفال طعام الغداء فى حانوت هذا الأرمنى الذى اشترى طعامه منذ المساء وإلا كان اضطر للعودة إلى حى بيرا حيث يسمح بإقامة الأجانب للحصول على الطعام .

ويذكر نرفال أنه تحايل للإقامة فى استانبول ليشهد احتفالات ليالى رمضان ، فتنكر فى زى تجار الفرس ونزل بتوصية من صديق له فى خان بيلدز (النجمة) وكان يستقبل خليطاً من تجار آسيا «ومنهم المجوس والكوريون والوهابيون مما يكون خليطاً من اللغات يستحيل على الأتراك معرفة إلى

أى جزء من الشرق ينتمى هؤلاء» .

وفى هذا الخان لقى الفرنسى المتنكر من كرم الضيافة الشرقى الكثير ، إذ كان يسمح له بتناول الطعام وشرب القهوة أثناء النهار ، وحينما كان يحل المساء «كان الإيرانيون الذين كانوا كالأتراك ينامون سحابة اليوم ليستطيعوا الاحتفال بكل ليلة من ليالى رمضان يصحبوننى معهم لمشاهدة الاحتفالات المستمرة التى تدوم ثلاثين يوماً» .

وليالى رمضان فى استانبول هى على النقيض من أوقات النهار فالشوارع كلها مزدحمة بالحركة غاصة بالأطفال والنساء أكثر مما تزدحم بالرجال لأن هؤلاء كانوا يقضون أغلب وقتهم فى المساجد والمقاهى . وكانت جميع الحوانيت مفتوحة مزينة بالأكاليل وأصص الزهور ومزادنة من الداخل بالمرايا والشموع ، وكانت البضائع مزينة فى فن ، والمصابيح الملونة تتدلى من الخارج .

أما الطعام الذى يختفى من أيدى المارة نهاراً . فكان يملأ الطرقات ليلاً ، إذ تزدحم الطرقات ببائعى الفطائر والمقليات والفاكهة وسنابل الذرة المسلوقة وكذلك «بائعى البقلاوة وهى نوع من الكعك المشرب بالكثير من السمن والسكر يحبه النساء بصفة خاصة» .

وتماماً . كما هى الحال فى أغلب مدن الشرق . كانت ليالى رمضان تجمع بين العبادة واللهو ، وفى تلك الأخيرة أحتل القراقوز المكانة الأولى فى تسلية السكان وقد أهتم نرفال بالدخول إلى أحد عروض «هذه الدمية الغريبة المسماة بالقراقوز» فى أحد مسارح خيال الظل فى ميدان سراسكبيه . وشاهد عرضين أولهما بعنوان «قراقوز ضحية خيانة» وهى تتحدث عن أحد الجنود الأتراك ترك زوجته الجميلة ليرعاها قراقوز فى أثناء غيابه ، وحدثت بسبب ذلك سلسلة من المطاردات الغرامية التى قامت بها الزوجة فى حين نجح القراقوز فى الوفاء بعهده للزوج بعد سلسلة من الحوادث الطريفة التى قابلته .

أما العرض الثانى فهو بعنوان «زوج الأرملتين» وهى مسرحية هزلية تهريجية يسمونها «تقليد». وتدور أحداثها حول أن القراقوز أراد الزواج بأرملة أحد الضباط ولكنها اشترطت عليه أن يتزوج أيضاً «بضرتها» لتتمكن من أغاظتها كما فعلت تلك الضرة معها سابقاً أثناء حياة زوجها المتوفى . ولكن قدوم الزوج الذى كان أسيراً لدى الروس وقيد خطأ فى سجلات الموتى ، ينقذ القراقوز من موقفه الحرج ويغلق الستار وجميع شخوص العرض تنهال ضرباً على المأذون وسط التصفيق الحماسى الشديد من المشاهدين .

وإلى جانب عروض خيال الظل فقد كان الإيرانيون من جيران نرفال فى خان النجمة يصحبونه معهم إلى مقاهى استانبول بوصفه طالب علم ، وكانوا يذهبون إلى المقاهى الواقعة خلف مسجد بايزيد والتى كان يجتمع فيها قبل رحلته إلى الاستانة مدخنو الأفيون . وفى تلك المقاهى أدرك الرحالة الفرنسى مدى ما تتسم به ليالى المدينة من سحر بفضل تلك الروايات الرائعة التى يقصها الرواة أو

يرتلونها فى أهم مقاهى استانبول . ففى تلك المقاهى جلس نرفال مع الرواد ليشرب النرجيلة أو الشبك ، ملاحظاً أن وجود ورش صاهرى المعادن والنقاشين والحفارين الذين يصنعون أو يصلحون الأسلحة الجميلة قد أضفى على المقاهى جواً شعبياً دون أن تبدو على المقاعد هنا وهناك بعض الملابس المتأنقة .

ولما كان الراوى الذى استمع له نرفال وهو يقص حكاية «ملكة الصباح وسليمان أمير الجن» . من بين مشاهير الرواة فقد كان الازدحام كبيراً على المقهى ، وظل اللغط شديداً حتى طلب إلى الناس أن يلوذوا بالصمت . ثم أتى الراوى وهو «شاب ذو وجه شاحب وملامح غاية فى الدقة ونظرة ملتهبة وشعر طويل يتدلى من تحت غطاء رأسه وبعد أن شرب القهوة أخذ فى رواية قصته شعراً . ويبدأ الراوى بعبارة «الحمد لله ولصفيه أحمد الذى تضئ عيناه بنور جميل . أنه نبى الحق والوحيد» فيرد عليه الرواد «آمين» ويكون ذلك بمثابة تمهيد لبدء القصة .

وقد حدث لنرفال فى خلال هذا الشهر ما يستحق الذكر لطرافته . فعند ذهابه إلى أحد المقاهى قام أحد الأشخاص وهو «باشا إسكودار» بتحية الحاضرين ببعض المرطبات والقهوة ، وناول القهوجى الحاضرين تلك المشروبات باستثناء نرفال المتنكر فى زى تجار الفرس ، فلما نبه أحد الحضور القهوجى لذلك أجابه قائلا «لن أكون أبداً كافراً» ، ويقول نرفال أنه لم يخطر بباله أن هذا الرجل وهو بلا شك مسلم من السنيين لا يوجه إهانته إلا للباس الإيرانى الذى كان يرتديه ، إذ عندما عرف القهوجى أنه فرنسى عاجله بالمرطبات .

أما الواقعة الثانية فتتصل بجولة قام بها نرفال فى الحوانيت التى تبيع المياه المجلوبة إلى القسطنطينية من بلاد عديدة وفى سنوات مختلفة مثل مياه الفرات والدانوب وإن كان أهمها مياه النيل لأنها المياه الوحيدة التى يشربها السلطان . ففى نهاية هذه الجولة توقف نرفال أمام واجهة أحد المحلات وكانت تحوى قنينات لامعة بها سائل يبدو أنه عصير الليمون ويذكر أنه ابتاع واحدة منها بقرش تركى «وما أن رفعته إلى فمى حتى اضطرت إلى لفظ الجرعة دون ابتلاعها وضحك البائع من سذاجتى وكان لابد من العودة إلى يبلدز خان لأجد مشروباً أحسن طعماً» .

حدثت هذه الواقعة الغريبة لنرفال فى ليلة العيد ، فظل محتفظاً بالقنينة حتى التقى ببعض النسوة من اليونانيات والأرمن وسألهن عما بها فإذا بهن ينفجرن فى ضحك هستيرى دون أن يعطينه جواباً شافياً . ثم عرف فيما بعد أنه مشروب مقو يلجأ إليه الأزواج من كبار السن فى ليلة العيد .

ويكفى أن نستخلص من عبارات نرفال وهو يتحدث عن أمسية عيد الفطر ، مدى ما وصل إليه التأثير الأوروبى على سلوك العثمانيين وتعايش ذلك جنباً إلى جنب مع الحرص على أداء الصلوات فى أوقاتها .. يقول الرحالة الفرنسى «إن عيد الفطر لدى الأتراك يشبه عيد رأس السنة عندنا . فإن الحضارة الأوروبية التى نفذت شيئاً فشيئاً إلى عاداتهم قد جذبتهم شيئاً فشيئاً فيما يختص

بالتفاصيل المتفقة مع دينهم ، وهكذا فإن النساء والإطفال يشغفون حباً بالتحلى بالزينات والكماليات واللعب القادمة من فرنسا أو ألمانيا » .

وفضلاً عن ذلك فقد كان علية القوم من الأفندية يتزاحمون على محل «مدام مونييه» الفرنسية لشراء الحلوى الباريسية .

ورغم ذلك التأثير الأوروبى الدامغ فقد اختفى جميع الأتراك فى لحظة واحدة «من المحل حاملين لفائفهم كما يختفى الجنود حين تدق ساعة الانسحاب لأن الوقت كان قد حان لأداء إحدى الصلوات التى يؤدونها ليلاً فى المساجد» .

وقد عاين نرفال فى نهاية الليل استعدادات قصر السلطان للاحتفال بعيد الفطر حيث تحركت قوات الجيش وأقيم سياج بين إسكى سراى محل إقامة السلطانة الأم والسراى الكبيرة الواقعة فى الطرف البحرى فى استانبول ، وزعم الرحالة أن السلطان كان سيحتفل بالعيد عن طريق الزواج من إحدى الجوارى ؟!!

البغدادى فى مصر

موفق الدين عبد اللطيف البغدادى . طبيب عالم ورحالة موصلى الأصل بغدادى المولد ولد حسبما يذكر فى ترجمته لنفسه بدار جدة فى درب الفالوذج ببغداد سنة ٥٥٧ هـ (١٦٢م) . ثم أخذ فى تلقى العلوم المختلفة بالمدرستين الظفرية والنظامية ببغداد . ويقول عبد اللطيف فى سيرته عن نفسه «ولما كان فى سنة ٥٨٥ هـ (١٨٩م) حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبى ويملأ عينى ويحل ما يشكل على دخلت الموصل ..» وبذا بدأ البغدادى ترحاله الطويل متنقلا فيما بين دمشق والقدس والقاهرة وحلب وبلاد الروم ومنغوليا حتى عاد إلى بغداد ليموت ويدفن بها فى سنة ٦٢٩هـ بعد غياب عن بغداد طال إلى خمس وأربعين سنة . وقد ضمن البغدادى مشاهداته فى بر مصر فى كتابه الشهير «الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» . وانتهى من تأليفه حسبما يذكر هو بالقاهرة «فى رمضان سنة ستمائة» .

وفى حضوره إلى مصر حمل البغدادى خطاب توصية من القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى أشهر كتاب الدولة الأيوبية آنذاك ووزير صلاح الدين الأيوبى . ودفع الخطاب إلى وكيل القاضى «ابن سناء الملك» فجاءه فى الحال إلى الخان الذى نزل فيه وقدم له داراً وقدم له دنانير وغلة ثم مضى ابن سناء الملك إلى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضى الفاضل «قدرت عليه الهدايا والصلات من كل جانب حتى أصبح من المثرين» ثم عرض وكيل القاضى الوظائف على عبد اللطيف فاختار منها مسجد لؤلؤ الحاجب الواقع بالقرافة لتدريس الطب والفلسفة والرياضيات .

ولم يلبث البغدادى أن ذهب إلى القدس لملاقاة صلاح الدين الأيوبى . الذى توفى فى عام ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) فاضطر للإقامة بدمشق حتى جاء العزيز عثمان بن صلاح الدين بعساكره من مصر وحاصر أخاه الأفضل بالشام وعند رجوعه إلى القاهرة أخذ معه عبد اللطيف وعينه أستاذاً بالجامع الأزهر لتدريس الطب والفلسفة واستمر على ذلك حتى توفى الملك العزيز فى عام ٥٩٥ هـ . ومد إقامته بالقاهرة حيث حضر المجاعة الكبرى التى داهمت مصر وأعقبها الغناء الكبير . وفى تلك الفترة ألف البغدادى كتابه «الإفادة والإعتبار» .

وتعكس فصول الكتاب مدى تقلب الأحوال أبان إقامته بمصر ، إذ أوحى إليه رغد العيش فيما قبل مجاعة عام ٥٩٧ هـ أن يكتب عما فى مصر من نباتات وحيوان وآثار مصرية قديمة ومبان معاصرة. ثم داهمته المجاعة ووباء الطاعون فأفرد فصلاً عن أحداثها التى امتدت من شهر رمضان

عام ٥٨٩هـ ولم تضع أوزارها إلا فى شهر رمضان من عام ٦٠٠هـ والذى انتهى فيه من تأليف كتابه.

ولما كان النيل كما استبان للبغدادى هو محور حياة المصريين ومناط عيشهم فقد أهتم بالحديث عن هذا النهر ومجراه ومواسم فيضانه ومنابعه ثم تطرق إلى أرض مصر وأشكال تربتها وسبب خصوبتها وأعتبر أن ذكاء المصريين وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم عائد لحرارة بلدهم الذاتية لأن رطوبته عرضية.

وبتمكن المتخصص فى علم النباتات اهتم البغدادى بالحديث عن أنواع النباتات التى عد مصر متفردة بها أو متميزة فى إنتاجها وإن جنح فى بعض الأحيان إلى إثبات أقوال العامة دون كبير تمحيص أو تدقيق كقوله بأن «شجر الموز فى الأصل مركب من قلقاس ونوى النخل» .

أما حديثه عن الأطعمة التى يحتفى بها المصريون فى المواسم مثل رمضان فيعد تسجيلاً دقيقاً لما كان عليه حال المطبخ المصرى وإن ذكر أن أهل مصر من العوام «قلما يعرفون شيئاً من ذلك وأكثر أغذيتهم الصير (السمك المملح) .. والجبن ونحو ذلك وشرابهم البوزة وهو نبيذ يتخذ من القمح ومنهم (العوام) أصناف يأكلون الفار المتولد فى الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط» .

ومن بين الأغذية والأطعمة التى ذكرها النبدة «وهى بمنزلة الخبيص حمراء إلى السواد وهى حلوة لا فى الغاية وتتخذ من القمح » . وذكر أن المصريين يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات وسبيل ذلك أن يسلق الدجاج ويرمى فى الجلاب (ماء الورد) ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو برز رجله (ضرب من الحمص) أو ورد ويطبخ حتى ينعقد ثم يتبل ويرفع وتسمى هذه الأطبخة بالفستقية والبندقية والخشخاشية والوردية وست النوبة للتى تعقد ببزر الرجلة لسوادها» .

ولكثرة مايصنع من الحلويات المتخذة من السكر . وهى الشائعة فى رمضان .فقد أكتفى البغدادى بالإشارة إلى استخدامها فى التداوى من أمراض المعدة وأضرب عن ذكرها لكثرة أصنافها حتى أنها تحتاج على حد تعبيره إلى كتاب خاص .

واختتم حديثه عن الطعام بتفصيل طويل ودقيق لكيفية طبخ «رغيف الصينية» وهى أكلة تتألف من طبقتين من عجين الخبز بينهما خراف مشوية ومحشوة باللحم المدقوق ومعها فراريج وحمام متبلة جيمعها ومزودة بالفستق واللوز .

ومن حديث الرغد إلى حديث القحط فى عام ٥٩٧ هـ .انتقل البغدادى صادماً القراء . فذكر أن سنة سبع (٥٩٧ هـ) دخلت «مفترسة أسباب الحياة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد» .

وفى تلك السنوات العجاف شهد البغدادى شهر الصيام فيما ليس له عهد به طوال إقامته السابقة

في مصر . فمن أطعمة رمضان والحلوى إلى أكل الجيف ولحوم البشر يقول البغدادى فى رمضان سنة ٥٩٧ هـ «ووجد فى رمضان وعصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقى قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم . ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الإطلاع على علم التشريح» وهكذا لم ينس عبد اللطيف مهنته كطبيب فى مثل هذا الموقف المأساوى.

ويواصل البغدادى حديثه عن تعلق الفقراء فى رمضان بأكل بنى آدم حتى أن الناس كانوا يتناقلون أخبارهم «ويفيضون فى ذلك استفظاعاً لأمره وتعجباً من ندرة وقوعه ثم أشتد قرمهم (اشتياقهم) إليه وضراوتهم عليه بحيث أتخذوه معيشة ومطية ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له» .

وفى ذلك كله لاحظ عبد اللطيف أن أكثر المتهمين بأكل لحوم الأطفال الصغار كن من النساء وأرجع ذلك لأنهن «أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار ولقد أحرق بمصر خاصة فى أيام يسيرة ثلاثون إمرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة» .

وقد رأى البغدادى «إمرأة مشجعة الرأس يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره فعاد تعجبى منهم أشد وما ذاك إلا لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لا يستحق أن يتعجب منه ، ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه» .

وزاد من قتامة صورة رمضان التى قدمها البغدادى فى هذه السنة انتشار الوباء الذى أهلك أهل القاهرة حتى خلا معظم بيوتها وانخفضت أسعار المنازل لموت السكان ، وقد فنى أغلب سكان القرى فى هذا الوباء حتى أن الأرض أقامت سنين ولم تجد من يزرعها سوى الجند وحسبما يذكر عبد اللطيف البغدادى فإن حراث الأرض كانوا غير الزراع وأن الذين أكلوا من ثمر الأرض كانوا أيضاً غير هؤلاء جميعاً لتفشى الموت .

وقد ذكر البغدادى أن إرثا تعاقب عليه أربعة عشر شخصاً بسبب توالى الوفيات خلال هذا العام.

واهتم فى نهاية كتابه بأن يبين فزع الناس وهلعهم خلال شهر رمضان سنة ٥٨٩ هـ عندما توقفت زيادة فيضان النيل «إذ انتهى إحتراقه فى رمضان وانحسر عن القياس نحو ثمانية ذراع «وقبل انتهاء الشهر الكريم بأربعة أيام كان القاع ذراعاً ونصفاً ولم يزد النيل إلا فى شهر ذى الحجة وأمضى الناس رمضان فى قلق وترقب بسبب ذلك .

❮ ❮ ❮

العبدرى فى القاهرة

فى أواخر النصف الثانى من القرن السابع الهجرى . وبالتحديد فى عام ٦٨٨ هـ (١٨٩م) عزم محمد بن محمد بن على العبدرى وهو من علماء المغرب على الارتحال إلى ديار الشرق . وسجل ما رآه فى ذهابه وإيابه وإن مازالت رحلته مخطوطة إلى الآن .

وتتميز مدوناته عن القاهرة ومصر المملوكية بما هو أكثر من الصراحة . إذا لم يتخل عن ذكر مثالبها العمرانية وانتقاد السلوك الاجتماعى لسكانها . وقد بدأ العبدرى بالحديث عن الاسكندرية ، أول محطة يقصدها أهل المغرب فى ترحالهم تجاه الحجاز والشرق الإسلامى . وعادة ما يكون وصولهم إليها فى شهر رمضان ليلحقوا بمحمل الحج الذى يخرج من القاهرة فى شهر شوال . وعن هذه المدينة الساحلية القديمة يقول العبدرى «الاسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الإشراق اللامع والطلاقة وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة .. مدينة فسيحة الميدان مليحة البنيان . كأنه لم يغب عنها شخص الاسكندر . مما ساس فيها من عجائب مبانيها ودير . ناهيك بمدينة كلها عجب قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب» ثم أخذ فى وصف أهم مبانيها ولاسيما «منارها الفريد» وعرج على وصف أحوال أهلها وذكر عدداً من أهل الفضل والعلم الذين لقيهم فيها وما سمعه منهم أو ما قرأه عليهم .

وانتقل العبدرى إلى القاهرة فى أخريات رمضان . فنزل بالمدرسة الكاملية بالجمالية وهى مطلة على شارع بين القصرين أكبر شوارع القاهرة وأحفلها بالحركة وأعمرها بالأسواق . وكان أمامها حسبما يذكر المقريزى فى خططه سوق الدجاجين حيث يباع الدجاج بأنواعه وشتى أصناف الطيور المغردة ثم سوق الشماعين الذى يزدان بأصناف الشموع «الموكبية» أى الضخمة خلال شهر رمضان حتى يستحيل ليل هذا الجزء من السوق إلى نهار وتقف فيه سيدات ماهرات فى ألعاب الهواء وحركات البهلونات ولهن الخناجر فى أوساطهن ويعرفن لذلك ولشجاعتهن بزعيرات الشماعين .

وقد اهتم العبدرى بأن يعطينا إحساس المقيم ليلاً ونهاراً بهذا الجزء المزدحم من الأسواق لاسيما وأنه نزل فى المدرسة الكاملية فى علو يشرف على السوق فيقول عليه رحمة الله «فكنت قلما أرقد ألا منغصاً لصياح الباعة وهم يبيعون طوال الليل . وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضيع إلا من السوق .. والطريق غاصة بالخلق حتى ترى الماشى فيها ما له هم سوى التحفظ من دوس الدواب إياه . ولا يمكنه تأمل شئ فى السوق لأن الخلق يندفعون فيها مثل اندفاع السيل . وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً إياها ، فتكاثر عليه الزحام حتى أسقط عنها واندفعت فى غمار الخلق ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها» .

وأتم العبدرى صيام رمضان بالقاهرة وصلى مع أهلها صلاة العيد ، ويبدو أنه لم يلق منهم ما كان يؤمله ويرتجيه من الترحيب الواجب بالغرباء ولذا نجده يقول «ولم أر منهم يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة» فأثر ذلك فى نفسه وربما دفعه هذا الأمر إلى إبراز ما اعتبره من مثالب العمران فى القاهرة ونواقص أهلها أيضاً .

ولم يسلم من نقد العبدرى اللاذع سوى نهر النيل والشيخ الدمياطى . فقد أبدى العبدرى القادم من فيافى الصحراء الافريقية إعجابه بنهر النيل . فهو فى نظره «من عجائب الدنيا عذوبة واتساعاً وغلة وانتفاعاً وقد وضعت عليه المدائن والقرى ، فصار كسلك انتظم درراً» . كما أبدى استحسانه لجملة ما شاهده بمصر كالأهرام ومشاهد الحسين والسيدة نفيسة وآل البيت وتربة الإمام الشافعى بالقرافة .

ورغم كثرة المشايخ فى مصر الذين التقاهم العبدرى وسمع منهم خلال شهر رمضان إلا أنه دون العديد من الانتقادات بحق حتى أولئك المشهود لهم بغزارة العلم وذيوع الصيت .

فبعد أن قابل الشيخ ابن دقيق العيد ، ذكر العبدرى أنه رآه «حبراً كاملاً عالماً يحق له اللقاء . وبحراً من علم لا تكدره الدلاء ، له تفنن فى فنون العلوم وتسلط عليها بذهن يرد المجهول إلى المعلوم، وقلما يلقى له فى سمة المعارف نظير أو يوجد من يماثله فى صحة البحث والتنقير ، وله فى البلاد ذكر شهير ، وصيت مستطير وخطر خطير يضرب فى كل فن بسهم مصيب ويحظى منه بأوفر نصيب ... فهو الآن قطب مصر وعلمها ولولا (وآه من لولا هذه) وسوسة تصحبه وأخلاق يجل عنها منصبه ، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور أو تليت لها سورة كانت أبشع السور» .

أما حديثه عن العلماء الذى خلال من «لكن» و«لولا» فقد كان عن المحدث بالمدرسة الظاهرية ببيبرس بالنحاسين (دثرت الآن) فيقول عنه «لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل وأقرب إلى الإنسانية وأجمل معاملة من الشيخ عبد المؤمن بن خلف الدمياطى المحدث بالمدرسة الظاهرية وقد سمعت منه أحاديث جملة من سنن الشافعى» .

ويبدو أن الدمياطى الذى نجا وحده من نقد العبدرى قد قابل الضيف المغربى بما أمله من «إنسانية» وترحاب أهملهما سواه من المشايخ أثناء دروس رمضان .

إدوارد لين فى القاهرة

قصد هذا الرحالة المستشرق مصر ليدون ما يشاهده بها خدمة للقراء الإنجليز بنى جلدته ، ولعله فى ذلك أراد ترسم خطى الدكتور رسل RUSSEL الذى ألف كتاباً عن أهل حلب لاقى انتشاراً واسعاً فى الجزر البريطانية .

وقد زار «إدوارد وليم لين» مصر مرتين أولاهما كانت فى عام ١٨٢٥م والثانية فى عام ١٨٣٣م. ورغم أن هاتين الزيارتين قد وقعتا فى فترة حكم محمد على إلا أن الرحالة والمستشرق الإنجليزى قد لاحظ أن المجتمع المصرى فقد كثيراً من اتصاله الوثيق بتقاليد العصور الوسطى ولاسيما فى احتفاله بالمناسبات والأعياد وإن آلية الدولة الحديثة التى حاول محمد على تنظيمها على النمط الأوروبى قد أخذت تؤتى ثمارها فى المجتمع .

ويعد كتاب لين «المصريون المحدثون» بمثابة سفر عظيم الفائدة لكل من أراد البحث فى أحوال مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وإن عابه بعض الشئ أن المؤلف قد أخذ الكثير من تأويلاته للأصول التاريخية للعديد من التقاليد والعادات السائدة من أفواه الذين قابلهم . ولم يحاول أن يمحص أقوالهم ربما لطرافتها التى تثير إعجاب وشغف القراء الأوروبيين .

ومما عنى لين بتسجيله ذلك الاحتفاء الشعبى بمقدم شهر رمضان بادئاً بتسجيل ما يحدث فى ليلة رؤية هلا ل رمضان . فيذكر أن نفراً من الناس يخرج إلى الصحراء لرؤية الهلال . «وتكفى شهادة المسلم الواحد أنه رأى الهلال لإعلان الصيام» .

وقد أحتفظ لنا الرحالة الإنجليزى بوصف كامل للموكب الشعبى المعروف «بموكب الرؤية» وكان يبدأ من القلعة مقر الحكم إلى مجلس القاضى بالمدرسة الصالحية النجمية بحى الجمالية بالقاهرة . ويشارك فى هذا الموكب «المحتسب ومشايخ الحرف المتعددة . الطحانين والخبازين والجزارين والقصاصين والبدالين وباعة الفاكهة ومعهم بعض أعضاء آخرين من هذه الحرف وفرق من الموسيقيين وعدد من الفقراء (المتصوفة) يتقدمهم أو تتخللهم فرق من الجنود وجرت العادة فى هذا الموكب أن تقاد خيول مسرجة بأجمل السروج . وبعد أن يصل الموكب إلى مجلس القاضى يمكث الجميع فى انتظار عودة أحد المرسلين لرؤية الهلال أو شهادة أى مسلم آخر على أنه رآه . بينما تخص الطرقات التى يمر بها المارة والمتفرجين . ذلك ما شاهده لين فى زيارته الأولى لمصر .

وعندما عاد إليها بعد سنوات لا تتعدى الثمانية لاحظ أن الموكب المدنى والدينى استبدل بأكثره

عرض عسكرى تافه» حيث صار الموكب يتكون من مشاة النظام ، ويتقدم حاملو المشاعل كل فرقة من الجنود ويتبعونها ليميزوا لهم الطريق عند العودة «ويتلوهم شيخ حرفة ما وآخرون من أتباعه ، وعدة فقراء يصيحون طوال الطريق : الصلاة . الصلاة . صلوا على النبى عليه السلام . ويفصل كل فرقتين أو ثلاث فاصل عدة دقائق ويختم المحتسب وتابعوه الموكب» .

ويبدو أن تقلص دور طوائف الحرف فى هذا الموكب . وفى الحياة قبل ذلك . عائد إلى مشروعات محمد على الصناعية التى ارتبطت بالاحتكار وإزاحة دور نقابات الحرفيين لصالح الدور المتنامى لدولة محمد على المحدثة ، وقد حضر «إدوارد لين» هذا التحول فى الفترة السابقة على انهيار حلم محمد على بعد توقيع اتفاقية لندن عام ١٨٤٠م .

وإذا ما تم التيقن من الرؤية أنطلق الجنود والمجتمعون فى الأحياء المختلفة . صائحين «يا أمة خير الأنام ! صيام صيام» . وعندما لا يرى القمر هذه الليلة يقول الجنود «غدا من شهر شعبان . فطار ! فطار» .

وكما هو الدأب دوماً فى الشهر الكريم منذ صدر الإسلام ، كانت تضاء مساجد القاهرة فتعلق المصابيح عند مداخلها وفوق شرفات المآذن . أما فى أوقات النهار فإن أهم ما اهتم «لين» بالحديث عنه هو خلو الطرقات من المارة الذين يمسكون «بشبكهم» إذ رآهم بدلا من ذلك «يحملون عصا أو مسبحة أو لا يحملون شيئاً إلى ما قبل الغروب . والكآبة البادية على الشوارع فى الصباح الباكر لإغلاق معظم الدكاكين «غير أنها تفتح جميعاً فى العصر وتزدحم كالمعتاد» .

وقد لاحظ أن المسيحيين فى زيارته الأولى للقاهرة كانوا يخشون التدخين فى حوانيتهم نهاراً على مرأى المسلمين الصائمين . ولكن بعضهم لم يعد يخشون ذلك فى زيارته الثانية .

ويسجل إدوارد لين أن كثيراً من الطبقتين العليا والوسطى يفطرون سراً . بينما يقل من لا يصومون من الفقراء . وإن عادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرين غيرهم أن يقصدوا مسجد الحسين عصر كل يوم فى رمضان للصلاة والاسترخاء وفى هذا الوقت يعرض بعض التجار الأتراك الذين يسمون «تحفجية» على الناس فى ساحة الميضأة مجموعة من البضائع ذات ذوق وترف يلائمان رغبات مواطنيهم . ومعلوم أن العامة كانت تطلق كلمة «تحفجى» على بائعى المعاجين والمنازيل وهى مواد يدخل فيها الحشيش والأفيون" . ورغم ذلك فقد كان من الشائع فى القاهرة فى هذا الشهر . أن تشاهد تجاراً فى حوانيتهم يتلون القرآن أو الأدعية أو يوزعون الخبز على الفقراء .

أما عن عادات الأسر فى منازلها عند الغروب فيلخصها لين فى أن غرفة الاستقبال بمنازل الطبقتين العليا والوسطى كانت تضم صينية فيها صحاف عديدة تحوى أصنافاً مختلفة من الفاكهة المجففة (النقل) مثل البندق والزبيب والجوز واللوز والبلح والتين المجففين والبندق المسكر إلى جانب الكعك وعدة «قلل من الماء المحلى بالسكر ومعها عادة كوبة أو كوبتان زيادة على عدد الزائرين

الحاضرين ، ليشترك فى الشرب كل من يقدم على غير انتظار . وكثيراً ما تضاف قطعة من الجبن الطازج وبعض الخبز ويجهز الشبك (للتدخين) أيضاً » .

ويبدو أن المصريين آنذاك كانوا يفطرون أولا بتناول أكواب من الشراب ثم يؤدون صلاة المغرب وبعدها يتناولون بعض النقل ويدخنون الشبك . وعقب هذا الأكل الخفيف يجلسون لتناول الفطور وهو عادة من اللحم وغيره ، ثم يعقبون ذلك بشرب القهوة وتدخين الشبك قبل أن يؤدوا صلاة التراويح .

وفى حين تخلد الأسر إلى النوم قبيل منتصف الليل كان الرجال يخرجون أما إلى بعض بيوت الأصدقاء أو إلى المقاهى «للاستماع إلى أحد القاصين الذين يسلون القوم فى عدة مقاه كل ليلة من هذا الشهر» وتزدحم الشوارع بالمارة أثناء الليل وتظل دكاكين المشروبات والمأكولات مفتوحة «وهكذا ينقلب الليل نهاراً وبخاصة عند الأغنياء الذين ينام أكثرهم معظم النهار » ولا يعنى ذلك أن لحياة الليل فى رمضان وجها واحداً . فهناك أيضاً وجه آخر حيث نجد أن بعض علماء القاهرة اعتادوا إقامة «ذكر» فى منازلهم كل ليلة من ليالى رمضان وقد يدعو بعض الآخرين أيضاً أصدقاءهم ويسلونهم بإقامة ذكر أو خاتمة» .

وبينما يغص قلب المدينة بحركة المارة وصخب المقاهى يجول «المسحرون» فى الحارات . فيمرون فى أول الليل ليقدموا بعض كلمات المدح والثناء أمام كل منزل يستطيع صاحبه أن يكافئهم . وفى ساعة متأخرة يجولون ليعلنوا وقت السحور . وكان الشائع آنذاك أن لكل حى أو خط مسحر خاص يسميه بازا .. ويمينه عصا صغيرة أو سيراً (من الجلد) يضربه به ويصحبه غلام يحمل قنديلين فى إطار من الجريد» . وبعد الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم يحيى المسحر صاحب المنزل (أسعد لياليك يا فلان) ثم اخوته وأولاده وبناته الأبكار فقط قائلا فى الحالة الأخيرة (أسعد الليالى إلى ست العرايس فلانه) . وبعد ذلك بمثابة إعلان عن وجود فتاة لم تتزوج بعد فى هذا المنزل . ويحدث فى بعض الحالات أن يقوم المسحر برواية قصة المعراج أو نحوها من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ضارباً طبله بعد كل قافية . ولا يقف المسحر على منازل الحزانى «ويتناول المسحر على العموم من منزل المتوسط الطبقة قرشين أو ثلاثة أو أربعة قروش فى العيد الصغير ويعطيه البعض مبلغاً زهيداً كل ليلة» .

ولا يتوقف دخل المسحر عند هذا المعلوم الضئيل القيمة ، بل يزيد غالباً عن ذلك نتيجة أن بعض نساء الطبقة المتوسطة كن يعمدن إلى وضع نقد صغير فى ورقة ويقذفن بها من النافذة إليه بعد أن يشعلن الورقة ليرى المسحر مكان سقوطها . «فيقرأ الفاتحة بناء على طلبهن أحياناً أو من تلقاء نفسه ويروى لهن قصة قصيرة فى سجع غير موزون ليسليهن ، مثل قصة الضرتين وهى قصة مشاجرة إمرأتين متزوجتين رجلاً واحداً وبعض ما يرويه فى هذه المناسبات بذئ . ويستمع إليه مع ذلك النساء فى المنازل الحسنة السمعة» .

ويظهر أن الإذاعة المصرية قد استوحت فى منتصف هذا القرن دور قاص المقهى والمسحر وهى تبث فقرة المسلسل الرمضانى فى برامجها خلال هذا الشهر .

أما الاحتفال بعيد الفطر فقد لاحظ إدوارد لين أن الناس بعد خروجهم من صلاة العيد يتعانقون مهنئين ويتزاورون للتهنئة بالعيد . «ويلبس البعض حتى من الطبقة الدنيا ملابس كاملة جديدة ويكاد الكل يلبسون شيئاً جديداً ولو حذاء فقط» .

ويأكل أهل القاهرة فى أول أيام العيد . كما هو شأنهم قديماً وحديثاً ، السمك المملح (الفسيخ) والكعك . وكانت لهم فى هذا اليوم أكلة يذكرها لين باسم المزرة وقد اختفت الآن وهى تتكون من اللحم والبصل والدبس والخل والدقيق الخشن» .

ومن العادات «القديمة الجديدة» التى كانت معروفة بمصر فى هذا الوقت خروج أفراد العائلات (وخاصة النساء) لزيارة مقابر أقاربهم ويحملون معهم السعف والريحان فضلا عن الكعك والشربك والفطير والبلح وقد يبيت البعض بالقرافة ليوم أو أكثر بهذه المناسبة . وقد لفت نظر «إدوارد وليم لين» ازدحام مقابر «باب النصر» إلى شمال القاهرة بالزوار وكثرة الخيام المعدة بها لإقامتهم .

وفيما عدا تلك المظاهر فلم يسترع انتباه لين فى أيام العيد سوى إغلاق «أغلب حوانيت العاصمة ما عدا حوانيت المأكولات والمشروبات غير أن الشوارع تظهر لحشد المارة فى ملابس العيد فى منظر بهيج» .

❮❮❮

محمد السنوسى فى الاستانة

ولد محمد بن عثمان بن محمد السنوسى بحاضرة تونس فى الثانى والعشرين من ذى القعدة عام ١٢٦٧ هـ (١٨ سبتمبر ١٨٥١م) ونشأ فى بيت علم فدرس بجامع الزيتونة وتخرج فيه ليعمل مدرساً ثم ألتحق بوظائف حكومية متعددة ورعى إصدار جريدة «الرائد» . وعندما فرضت الحماية الفرنسية على تونس تعلل السنوسى بالحج لمغادرة البلاد بعد أن منعته السلطات المحلية من ذلك . وقد دون مشاهداته فى هذه الرحلة ضمن كتاب صدر فى ثلاثة أجزاء تحت اسم «الرحلة الحجازية» .

وقد حضر محمد السنوسى رمضان فى الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢م) . وإن أدركته أول أيام الشهر وهو فى ميناء نابولى بإيطاليا ثم وهو بباخرة ضخمة تابعة لشركة الساجرى عبرت به المتوسط باتجاه القسطنطينية . ويذكر السنوسى أنه التزم على ظهر الباخرة «ترك ما يأتون به من الخمر وآنيته الملازمين للطعام» فأظهر له القبطان تعجبه من ذلك مشيراً إلى أن كثيراً من المسلمين معه يقولون أن القليل من الخمر غير ممنوع ولذا فهم يتناولون مقدار أربعة أصابع من آنية الخمر . فرد عليه السنوسى بأن «هذه الخمر عصير عنب وهى فى ديننا محرم كثيرها وقليلها والقائلون بجواز ذلك القليل لم يريدوا إلا إقناع السائل تستراً من إظهار المجاهرة بارتكاب المحرم» .

وقد نزل السنوسى القسطنطينية فى سادس شهر رمضان وتلقاه فى بوغازها وكيل الترانسة السابق التاجر عمر راوى ومحمد العمادى بيرم والمرعى العربى بسيس وجميعهم من أهل بلده . ويصف ابن تونس ، ككل زائر للمدينة جمالها الأخاذ بعد «أن أسدل الليل رواقه واتقدت مآذن المدينة وأسواقها» إذا رآها فى أبهج المناظر الليلية ، وذكر أن عدد سكانها يصل إلى المليون والنصف آنذاك منهم نحو المليون من المسلمين .

ولما كان الرحالة السنوسى قد أقام مدة فى إيطاليا قبل السفر وهو لا يسمع إلا «قرع النواقيس قرعاً يغتم منه القلب» فقد حرص على أن يخرج لصلاة العشاء بأقرب الجوامع من بيت مضيفه محمد بيرم «فكان دخولى تلك الليلة لجامع بشكطاس من ألذ ما لاقيته فى تلك المدينة العظمى . وكان وقع تلاوة القرآن من قراء المحفل ثم من الإمام أعظم المواقع في نفسى» .

ووقع من الرحالة التونسى الاهتمام بزيارة معالم القسطنطينية ، فذهب خلال شهر رمضان لزيارة ضريح أبى ايوب الأنصارى وهو صحابى شهد مع النبى صلى الله عليه وسلم المغازى وحضر واقعة صفين مع على (رضى الله عنه) وخرج فى غزو القسطنطينية سنة ٤٨ هـ حين كان شيخاً هرماً وتوفى

هناك فأمر يزيد بن معاوية أن يدفن عند سورها فأصبح مدفنه أعظم مزار بتلك المدينة وحوله جامع بهيج من أشهر جوامعها خطيبه جلال الدين أفندى» .

وزار محمد السنوسى أيضاً جامع أيا صوفيا وأورد وصفاً دقيقاً لعمارته ، وقد وقعت له عند دخوله لهذا الجامع حادثة طريفة تعكس حالة الشقاق المذهبى التى وسمت تلك الفترة . فعند قيامه لصلاة ركعتى تحية المسجد قبل صلاة العصر أسدل يديه جرياً على عادة المالكية من أهل المغرب فحدث لغط فى الجامع وهمهمات وبعد فراغه من الصلاة قام إليه شيخ مسن يعرف القليل من العربية فسأله عن بلاده ومذهبه فأعلمه أنه مغربى تونسى وأنه أسدل يديه فى الصلاة لأن ذلك مشهور فى مذهب مالك «فقال للمنتظرين له ممن حولنا : مذهب مالكى سنى» والتفت إلى السنوسى موضحاً أن سدل اليدين عندهم معروف للشيعة ولذلك تشوش الجماعة . وعندئذ تذكر السنوسى أن مالكاً قبض فى الصلاة وأن فقهاء المالكية ذكروا أنه لا بأس من القبض عند الضرورة أو خوف التشويش «ومن ذلك الوقت رجعت إلى القبض فى الصلاة مدة إقامتى بالاستانة» . وعندما حضر السلطان للصلاة فى جامع أحمد الثالث لاحظ أن الموفد التونسى يقبض فى صلاته فأستفسر عن سر ذلك وهو يعلم أنه على مذهب مالك فروى السنوسى قصته وترجمها الشيخ محمد ظافر للسلطان .

وتكاد مشاهدات السنوسى فى رمضان القسطنطينية قصراً على المساجد وما يجرى فيها خلال الشهر الكريم ، مثل استحسانه لعادات المصلين فى أن لا يدخلوا أنعلتهم إلى بيت الصلاة . إذ للأنعلة حفظة عند الأبواب لهم خزائن يحفظون بها الأنعلة ، ويبرر ذلك بأن الفقهاء قد كرهوا «دخول النعل غير المأمونة من النجاسة إلا للضرورة . وقد دفعت الضرورة عادة البلاد العثمانية» .

وقد أعجب محمد السنوسى أيضاً بمجالس دراسة التفسير والحديث والوعظ التى تعقد فى جامع أيا صوفيا بعد صلاة العصر فى كل يوم من رمضان وكان بعض هذه المجالس يختص بالنساء فيجلسن «داخل سياج حافظ لهن ويجلس المدرس وراء السياج فيقهرئن ولا يحضر عليه أحد من الرجال» .

ولما كان رحالتنا التونسى قد زار القسطنطينية وهى توشك أن تنهى استدارتها الكاملة باتجاه أوروبا فقد هاله ما يحدث فى تلك الدروس الدينية من أخطاء مرجعها إلى عدم حفظ القرآن أو قلة الدراية باللغة العربية .

فقد وقف على درس أحدهما فإذا هو يتلو قوله تعالى : (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) (سورة الجن - الآية ١٨) فقرأ فلا تعبدوا مع الله أحداً ، فعاجله السنوسى بتلقين الآية فلم يقبل وأخذ يقرر معناها باللغة التركية إلى أن وصل لتعبدوا فذكر مصدر العبادة العربى وأخذ يفسر العبارة بذلك «فأعدت تنبيهه فتكلم بالتركى ولم أفهم ما قال سوى أن رجلاً عالماً كان بمقربة منا وكان يسمع جميع ذلك فقام إليه وصاح به وتكلم معه بالتركى وأرجعه» . وبعد ذلك قال هذا العالم للسنوسى «إن دروس رمضان لا يقرئها العلماء فى بلادنا ووصف الرجل بالجهل» . ومع ذلك فقد

لاحظ محمد السنوسى أن هذا العالم التركى كانت معرفته بالعربية قليلة وغاية ما أستفدت منه أن المدرس تلا عبارة التفسير فى مقام تلاوة الآية .

وبهذه المناسبة تذكر السنوسى ما أخبر به الشيخ محمود قابادر وهو تونسى أيضاً من أنه سمع مدرساً بالأستانة وهو يخطئ فى أحرف اللغة العربية خطأ فاحشاً وهو يقرأ أحد أبيات الشعر العربى وعقب على ذلك قائلا بأن «الجهل يتوارث فى الأمم إذا لم يوجد فيها ما يرفعه» .

ويبدو أن مثل تلك الأخطاء كانت شائعة بين رجال الدين الاتراك حتى وإن أحسنوا العربية مثل خطيب جامع نورى عثمان وهو «سليمان أفندى» الذى تلعثم فى ذكر معنى الأغتسال ونطق كلمة الغسل على غير ما هو مشهور فى نطقها «وقد بلغنى عنه أنه إذا أخطأ فى رواية حديث أو نقل مسألة يعتذر بأنه يقول ذلك باللسان العربى والحاضرون لا يفهمون ما يقول وبذلك لا يرى من حرج فيما يأتى به» وقد عاين السنوسى جامع للسلطان بايزيد وذكر أن باحاته فى شهر رمضان أسواق للتحف والحلويات .

أما صلاة العيد فقد أداها فى الجامع السلطان سليمان (السليمانية) ، وهو أكبر من آيا صوفيا وخطيبه اسمه مصطفى أفندى» . وبمناسبة العيد تحدث السنوسى عن مسارح الاستانة (التياتروات) المعدة لضرب الآلات ورقص الغانيات وتشخيص المضحكات . وهنالك تسمع النغمات التركية وتوجد رائعات الجمال من بنات الروم والأرمن وتشاهد المشاهد المضحكة فى تشخيص الروايات الصحيحة وموضوعات النوادر المسلية للتربية والطرب على قاعدة ما وضعه العرب من الروايات التى يعبر عنها بحديث خرافة ما وضعه على ألسنة العجميات مما حوى نوعه كتاب كليلة ودمنة» . وشتان الفارق بين حال الاحتفالات الشعبية بالعيد عند زيارة الفرنسى نرفال للمدينة قبل حوالى نصف قرن وبين ما عاينه السنوسى من مظاهر أوروبية أقصت خيال الظل أو القراقوز عن مكانه العتيد التليد فى قلوب واهتمامات عامة الشعب .

ويقف وصف السنوسى لملابس السيدات عند النزهة فى أيام العيد دليلا ناصعاً على أن ما جاء به آتاتورك بعد ذلك من تحول كامل نحو أوروبا لم يكن سوى تتويج لظواهر كانت آخذة بالتنامى وأين نقاب السيدات الشفاف الذى شاهده السنوسى من النقاب الذى تحدث عنه نرفال قبل خمسين عاماً ، حتى أن الحكومة كثيراً ما كانت تصدر الأوامر للنساء باستعمال الخمار الصفيق فلم تبلغ الحكومة من ذلك مقصدها فكأن طريقة النساء الروم بقيت عليها نساء الترك» .